العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية

محتويات الجزء الثالث

موقف حكومة اسطنبول من مؤتمر النجف

العراق يدخل القرن الثامن عشر

تناول الجزء الثاني من هذا الكتاب، تفاقم أزمات الحكم العسكري العثماني بالعراق في القرن السابع عشر، وفشل أمراء العسكر الإنكشاري في الاستحواذ على الأراضي الزراعية في وسط وجنوب العراق، وفرض نظام الإقطاع العسكري "التيمار" هناك، وبسبب ذلك الفشل تعرض الحكم العثماني إلى الانهيار.

في محاولة لإيقاف تدهور أوضاع الحكم العثماني بالعراق، قررت حكومة اسطنبول في سنة 1704م، تعيين الوزير حسن باشا لولاية بغداد.

سلك حسن باشا سياسة مكنته من التمسك بحكم العراق إلى أخر حياته وتوريث الحكم من بعده إلى ولده أحمد باشا، وقد دامت فترة حكمهما قرابة نصف قرن من الزمن، كانت فترة عاصفة دموية أقحمت العراق بحروب داخلية وخارجية، تسببت في تخريب أنظمة الري والمنظومات الزراعية النهرية، التي كانت أساس الزراعة في وسط وجنوب العراق، وهذا بدوره تسبب في إفقار البلاد التي تحولت فيها مساحات كبيرة إلى أراضي قاحلة، مما كان له نتائج اقتصادية واجتماعية مدمرة.

حكومة الوالي الجديد حسن باشا

تؤكد المؤشرات التاريخية أن حسن باشا الذي تربى وتدرب في ديوان السلطان العثماني، كان قد توصل إلى قناعات شخصية أن نظام الحكم بإسطنبول الذي تسلط عليه العسكر الإنكشاري لا يمكن أصلاحه إلا بعد تحجيم دور الإنكشارية، وإبعادهم عن إدارة الإمبراطورية العثمانية التي حاقت بها الأخطار من كل جانب. وحينما نمعن النظر في السياسات التي اتبعها حسن باشا بالعراق، نجد أن جهوده منذ وصوله إلى بغداد انصبت ليس لإنقاذ الحكومة الإنكشارية بالعراق، بل لإقامة حكومة جديدة قوية موالية له شخصياً، تمكنه في تنفيذ سياسة ورائها مخطط يفرض وضعاً جديداً بالعراق، وبالتالي في الدولة العثمانية،

تأسيس جيش المماليك الكرج

لتنفيذ ذلك المخطط، أسس حسن باشا جيشاً خاصاً به قوامه صبيان مماليك كان يشتريهم من منطقة القفقاس الفقيرة وينقلهم إلى بغداد. وللتوسع بذلك المشروع، أسس حسن باشا دائرة خاصة في الديوان اسمها "ايج دائرة سي" أي دائرة الداخل، كانت مهمتها شراء المماليك من سوق الرقيق الأبيض في "تفليس" عاصمة

جورجيا التي كان فيها أكبر أسواق النخاسة في أقاليم القفقاس، بين بحر قزوين والبحر الأسود، وتدريبهم في بغداد للانخراط في ذلك الجيش الجديد.

بعد عقدين من الزمن بلغت قوة وسلطة ذلك الجيش من مماليك حسن باشا حداً أنهم تمكنوا بعد وفاته في سنة 1723م من فرض ولده أحمد باشا والياً في بغداد، والذي حكم حتى وفاته في سنة 1749م. والأخطر من ذلك، أن المماليك الكرج تمكنوا بعد وفاة سيدهم أحمد باشا، من الاستيلاء على السلطة ببغداد وتأسيس حكومة عسكرية قوامها أمراء عسكر المماليك الكرج الذين دام حكمهم حتى سنة 1831م.

في تلك الأثناء باشر حسن باشا بإقامة مجتمع حاكم جديد ببغداد قوامه أولئك المماليك الكرج. ولكي يحافظ على عصبية ذلك المجتمع الناشئ ويمنع اختلاطه بالمجتمع العثماني القديم الذي أقامه السلطان مراد الرابع، أو بسكان البلاد عن طريق الزواج، شجع حسن باشا تجار الرقيق على شراء الجواري من نفس الأسواق في جورجيا وجلبهن إلى بغداد. ومنذ تلك الأيام راجت ببغداد سوق الجواري "الكرجيات" ذوات البشرة البيضاء والشعر الأشقر القادمات من جورجيا وما جاورها من أقاليم القفقاس الجبلية.

بازدياد أعداد أولئك المماليك الكرج ونمو مجتمعهم الخاص، ازداد نفوذهم وقوي أمرهم ببغداد حتى أصبحوا قوة قاهرة تفوقت على انكشارية السلطان العثماني في جميع الميادين.

إضافة إلى تأسيس جيش المماليك الكرج، أنشأ حسن باشا ببغداد تشكيلاً عسكرياً محلياً من الفرسان عُرف بـ"اللوند" أو "اللوندات"، وشيد لهذا التشكيل عمارة واسعة في الجانب الشرقي من بغداد، اشتملت على مساكن ومرافق عديدة في منطقة مفتوحة إلى الشرق من جامع الفضل عرفت باسم "خان لاوند"، ونظم شؤون تلك الجماعة ورتب لهم الرواتب من ميزانية الولاية، وبمرور الزمن توسع ذلك الموقع وتحول إلى محلة كبيرة كانت تعرف بمحلة "خان لاوند".

ومن الجدير بالملاحظة أن حسن باشا أختار لونداته من اللر والكورد ولم يستعين برجال العشائر العربية، مما يشير إلى أن مخططاته منذ البداية كانت عدوانية ضد عرب العراق، ولذا أبعدهم عن قواته العسكرية.

بتأسيس جيش المماليك الكرج واللوندات، أصاب حسن باشا أكثر من هدف بسهم واحد، فمن جهة أوجد قوة عسكرية تأتمر بأوامره، قادرة على شن الحروب ضد عرب العراق، وفي نفس الوقت قادرة على الوقوف بوجه إنكشارية السلطان العثماني. إضافة إلى ذلك نجح في خلق مجتمع بغدادي جديد، يحمل روح العداء للمجتمع البغدادي القديم، وكذلك لمجتمع عرب العراق.

حروب حسن باشا

أن مسألة فشل العثمانيين في فرض نظام الإقطاع العسكري في وسط وجنوب العراق يعد مسألة تاريخية فريدة لم يشاهد مثلها في بقية أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وكان سبب ذلك الفشل، ظاهرة فريدة تميزت بها الزراعة في الوادي الرسوبي في وسط وجنوب العراق، عرفت بـ(الزراعة الحوضية)، ذلك النظام الزراعي الذي يقوم على تجمع الناس للزراعة على حوض أحد فروع الأنهار التي تنتشر كالشرايين في وسط وجنوب العراق، وقد فرضت طبيعة تلك الأنهار على الأفراد أن يجتمعوا ويتعاونوا في أعمالهم الزراعية، وأن تلك المصلحة الزراعية صهرت الفرد في أطار مجتمع متماسك أولد "العشيرة" التي كان حجمها يتناسب عادتاً مع حجم حوض ذلك النهر، ولنفس الأسباب ربط مصلحة تلك العشيرة بمصالح المجتمعات الزراعية في أحواض الأنهار المجاورة أو بعض جداولها، وأن تلك المصالح المشتركة جمعت تلك العشائر في اتحادات عشائرية كبيرة كان أهمها اتحاد عشائر الفرات الأوسط بقيادة الخزاعل، واتحاد عشائر المنتفك في جنوب العراق.

كان حسن باشا يدرك أن حكومته لا يمكن أن تستقيم بالعراق إلا بعد إخضاع اتحادات عشائر "الزراعة الحوضية" التي كانت تسيطر على أخصب الأراضي الزراعية في وسط وجنوب العراق، وذلك لتأمين الموارد اللازمة لإدامة حكمه ولتنفيذ مخططاته السياسية. ولابد أنه كان يدرك أن إخضاع العراق لسلطته، يتطلب منه أن يخوض حروباً دموية مريرة ضد تلك العشائر العربية القوية الشكيمة، التي ارتبطت حياتها بزراعة تلك الأراضي الخصبة على أنهار وسط وجنوب العراق. وعليه عمل منذ البداية أن يكون جيش المماليك الكرج قوة عسكرية قاهرة، مدربة أفضل تدريب ومزودة بآفتك الأسلحة الحديثة، وقادرة على خوض الحروب التي كان يخطط لها.

كانت عشائر الغرير والشهوان أول من تعرض لحملات حسن باشا العدوانية، وهي عشائر كانت تمارس الحياة الرعوية شرق دجلة بين كركوك والموصل. جهز حسن باشا لقتالهم حملة عسكرية بحجة أنهم يقطعون الطريق العام ويمارسون أعمال السلب والنهب. وحينما علم رؤساء تلك العشائر بخطة الوزير أرسلوا له وفداً من مائتي فارس محملين بالهدايا وقدموا له الطاعة، وأنكروا ما نسب إليهم، وتعهدوا له بحفظ الطريق العام. ولكن حسن باشا رفض كل ذلك، إذ كان قد اتخذ قراره مسبقا بالحرب.

كانت لعملية التنكيل بقبائل الغرير والشهوان ونهب أموالهم، أهمية خاصة لحسن باشا وهو في عامه الأول في حكم بغداد، فلابد أنه كان يريد أن يثبت أنه حاكم من طراز جديد، قادر أن يفرض على السكان طاعته بقوة السيف. ثم أن تلك الغارة العسكرية كانت أول فرصة له لتجربة قواته العسكرية ليرى مدى صلاحيتها للقتال تمهيداً للحملات العسكرية القادمة.

الحملة العسكرية ضد الخزاعل

بعد أن حقق حسن باشا انتصاره على الغرير والشهوان التفت إلى الفرات الأوسط حيث سلطة عرب العراق برئاسة الخزاعل، الذين كانوا يديرون شؤون مناطقهم الزراعية الغنية بصورة مستقلة عن سلطة الوالي ببغداد، ذلك الوضع الذي حرم خزينة حكومة بغداد من أهم مصادر تمويلها، وتسبب في جرها إلى حافة الإفلاس. في تلك الفترة أحكم الشيخ سلمان رئيس الخزاعل سيطرته على أكثر مناطق الفرات الأوسط الزراعية وأقام فيها سلطة إدارية وسياسية تذكرنا بدولة بني أسد العربية التي قامت في أواخر القرن الخامس الهجري في تلك المناطق[1]. وكان الشيخ سلمان يدعو نفسه "أمير العرب".

كان حسن باشا يدرك أهمية منطقة الفرات الأوسط الاقتصادية والعسكرية ويعلم أنه لا يستطيع أن يبسط نفوذه على باقي أنحاء العراق قبل القضاء على سلطة عرب العراق برئاسة الخزاعل والاستحواذ على ثروات تلك المناطق الزراعية، ناهيك عن العامل العسكري باعتبار أن القبائل العربية بالفرات الأوسط برئاسة الخزاعل كانت العقبة الكأداء التي ستحول دون تقدم جيوشه لإسقاط حكومة عرب العراق بالبصرة. لخوض تلك الحرب، استنفر الوزير كل إمكانياته العسكرية وزحف في سنة 1705م جنوباً نحو الخزاعل بجيش قوامه أربعون ألف فارس تسنده المدفعية وأسلحة أخرى.

تقدم الوزير في زحفه جنوباً وفي تلك الأثناء وصلته أخبار تشير إلى انسحاب المقاتلين الخزاعل جنوباً نحو السماوة ليتفادوا الانجرار إلى معركة خاسرة ضد ذلك الجيش الجرار المزود بآفتك الأسلحة. دخل حسن باشا الحسكة وبقية مناطق الخزاعل بدون مقاومة، وبعد أن أحكم سيطرته على جميع المناطق، كتب إلى القبائل التي نزحت من المنطقة يدعوها للعودة إلى ديارها بشرط أن تنقض تحالفها مع الخزاعل وتتعهد بدفع ما عليها من رسوم وضرائب. أما الشيخ سلمان فقد اضطر الذهاب إلى المنتفك.

الحرب ضد عشائر زبيد

تعتبر قبيلة زبيد من أكبر وأقوى القبائل العربية في العراق، تنقسم في انتمائها إلى فرعين رئيسين "زبيد الأكبر" و"زبيد الأصغر". تنتمي إلى زبيد الأكبر العشائر التي استقرت في منطقة الحلة شرقي الفرات ويمتد انتشارها باتجاه الشمال الشرقي حتى نهر دجلة حيث الصويرة. ولازال القسم الرئيسي منهم يحتفظ باسم "زبيد" أما الآخرون فقد تبنت عشائرهم أسماء فرعية مثل ألبو سلطان و الجحيش والسعيد وغيرهم. ومن العشائر التي تنتمي إلى "زبيد الأكبر" الجنابيون والدليم.

---

(1) أنظر "دولة بني أسد" ج1 من هذا الكتاب

أما عشائر زبيد الأصغر فتنتشر في مناطق ديالى ومناطق أخرى، وتمتد مناطقهم حتى نواحي بغداد. ومن هؤلاء العبيد والعزة والجبور. في عهد حسن باشا كان رئيس زبيد يدعى عبد الجادر (عبد القادر) وكانت تلتف حول زعامته مختلف عشائر زبيد، ومنها الجحيش والسعيد والمعامرة وآل خالد وكذلك عشائر الدليم وآل نوفل وآل حسين، وضد كل تلك القبائل العربية قرر حسن باشا إعلان الحرب، وباشر في تجهيز قواته اللازمة لتلك الحرب فتواردت إليه القوات من شهرزور ومن أمراء الإقطاع العسكري بالموصل، وكذلك من بعض العشائر العربية مثل عشيرة العبيد التي هي نفسها من زبيد، وكان يرأسها شاوي الحميري (جد عائلة آل الشاوي ببغداد).

وحينما علمت قبيلة زبيد باستعدادات الوزير وتحضيره للحرب. قدم جمع كبير من شيوخهم إليه في محاولة لتلافي إراقة الدماء، وأعلنوا للوزير ولاءهم وإذعانهم واستعدادهم لدفع ما تفرضه الحكومة عليهم من الضرائب. ولكن الوزير كان قد عزم على الحرب وسفك الدماء، لسحق قوة تلك العشائر ونهب أموالها، التي كانت خزينة بغداد بأشد الحاجة إليها. اضطرت عشائر زبيد أن تحشد رجالها وتدخل في معركة دامية ضد عساكر حسن باشا الذين أهلكت نيران مدافعهم آلاف الرجال ودمرت ديارهم. بعد انتهاء المعارك بدأت عمليات النهب والسلب وجمع الأموال والممتلكات، وهكذا عاد حسن باشا إلى بغداد محملاً بالحاصلات والأموال المسلوبة من عشائر زبيد.

الحملة العسكرية للاستيلاء على البصرة

في سنة 1704م، استولى الأمير مغامس بن مانع رئيس المنتفك على البصرة، وأقام فيها حكومة عربية برئاسته، تمكنت من بسط نفوذها على أغلب المناطق الزراعية في جنوب العراق. كتب المؤرخ العثماني يوسف عزيز المولوي صاحب كتاب (قويم الفرج بعد الشدة) يصف رجال المنتفك في تلك المرحلة التاريخية من القرن السابع عشر التي شاهدت تداعي أركان الحكم العثماني في العراق فقال عنهم: ... أن عُربان المنتفق أصل الفتن و الاضطراب ببغداد والبصرة. فهم جمرة الحرب، وأشجع العُربان، ومنشأ القلاقل ... في رؤوسهم المغافر، وعلى أبدانهم الدروع الذهبية، وأن خمسة عشر منهم يقابلون ألفاً، اعتادوا الرمي بالقوس على ظهور الخيل، يلعبون برماحهم في الهيجاء بصورة لا مثيل لها. وفرسانهم نحو أربعة آلاف. فكل واحد منهم بألف ... وقوة ظهرهم الشيخ مانع، به يصولون ويجولون. وعلى قلتهم لا يوازيهم أحد. فالفارس منهم يهاجم الصفوف دون مبالاة ... [1].

(1) عباس العزاوي. عشائر العراق، ج4ص28

في أول رجب 1120هـ (16 أيلول 1708م) خرج حسن باشا على رأس حملة عسكرية كبيرة للقضاء على حكومة عرب العراق بالبصرة، وسار نحو ديار المنتفك فوصل إليها في 6 شعبان 22 تشرين الأول.

من ديار المنتفك بدأ حسن باشا بإرسال دورياته لمهاجمة مختلف المناطق بهدف الاستيلاء على بعض المواقع، ونهب ما فيها من محاصيل زراعية وحيوانات لإطعام عساكره. أما القوة الرئيسية فقد استمرت في تقدمها وفي 22 شعبان (7كانون الأول 1708م) وصلت إلى ضواحي البصرة.

أدرك عرب العراق أهمية المعركة القادمة حول البصرة وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج سياسية وعسكرية، فهبوا لنجدة البصرة والدفاع عن حكومتها العربية. هكذا سارت جموع العشائر الشيعية منها والسنية من مختلف أنحاء العراق نحو ساحة المعركة، فوردت نجدات القبائل من قرب بغداد، ومجموعات كبيرة من المقاتلين من قبائل الفرات الأوسط التي انضمت إلى قوات الشيخ سلمان رئيس الخزاعل والذي سبق وأن التجأ إلى أمير المنتفق منذ حرب الفرات الأوسط. وجاءت قبائل عربية من الأحساء وأخرى من الحويزة. والتحق بذلك الجمع عشائر السراج (من ربيعة) وعشائر زبيد وبني خالد، وقبيلة غزية وعشائر المياح (منطقة الغراف)، وعشائر شمر. وقد ملأت جموع المقاتلين العرب، السهول والوديان.

المعركة الفاصلة

تركز حشد القبائل العربية في منطقة تدعى "دكاكين". أما جيش حسن باشا فقد استحكم على نهر عنتر، وبعد أن وزع حسن باشا فرقه العسكرية وقسم المهام بين الوزراء، أمر بسد نهر عنتر، ثم شرع بالحرب.

دامت الحرب لعدة أيام، كانت سجالاً بين الطرفين، وبالرغم من تفوق نيران أسلحة جيش حسن باشا، كان المقاتلون العرب يهاجمون قواته ويشتبكون معهم بالسيوف والخناجر، ويبدون في هجماتهم ضروباً من البسالة بالرغم من الخسائر الفادحة التي كانوا يقدمونها. وعلى هذا المنوال استمرت تلك المعارك الدامية حتى 19 رمضان (5 كانون الأول 1708م).

تكررت عمليات الكر والفر بين المقاتلين العرب وعساكر حسن باشا، واستمرت المعارك الدامية، وأثناء ذلك شن حسن باشا سبع هجمات كبيرة، كانت القبائل العربية تستميت أثناءها في الدفاع عن مواقعها، وكانت كل عشيرة تقاتل تحت رايتها.

في تلك المعارك الرئيسية، كان فرسان المنتفك يمثلون قلب المقاومة وبالأخص فرسان الأجود الذين كانوا يقاتلون بقيادة رئيسهم الشيخ تركي، الذي كان يلازم الشيخ مغامس في تلك المعارك. وفي عنفوان

الهجوم السابع اندفع الشيخ تركي على رأس فرسان الأجود لصد ذلك الهجوم، ولكنه أصيب أثناء القتال إصابة بالغة خرّ على أثرها صريعاً. بعد مصرع الشيخ تركي حدث ارتباك كبير في جبهة القتال ثم بدأت عملية الانسحاب والهروب من ساحات المعارك التي سقط فيها من العرب أكثر من عشرة آلاف قتيل.

يبدو أن معركة حسن باشا مع عرب العراق لم تنته بمقتل الشيخ تركي وهروب رجال العشائر من ساحة المعركة بل أمر عساكره بتعقيب رجال القبائل وقتلهم أينما وجدوا، و وعدهم بجزيل العطاء. انتشر العسكر في كل مكان وباشروا بقتل من عثروا عليه من رجال العشائر. كانوا يقطعون رؤوس الرجال ويحملونها إلى خيمة الباشا ليقبضوا ثمنها بالذهب والفضة، ويبدو أن بعض العسكر تكدست لديهم جثث كثيرة وبعدت المسافات فتعذر عليهم نقل الرؤوس إلى مقر القيادة، فقبل حسن باشا منهم أن يجلبوا له قلوب المقاتلين، وهكذا أخذ عساكر حسن باشا يشقون صدور رجال العرب وينتزعوا القلوب ويحملونها إلى الباشا.

دخل حسن باشا البصرة في آخر شهر رمضان 1120هـ (13 كانون الأول 1708م) واحتفل هناك بالعيد ووزع الهدايا على الوزراء وقادة العسكر الذين ساهموا في تلك الحرب، وأمر السكان بلزوم الطاعة.

استمر حسن باشا في السنين التي تلت معركة البصرة في مهاجمة العشائر العراقية والتنكيل بها ونهب أموالها وحاصلاتها الزراعية، وخاصة تلك العشائر التي كانت ترتبط بسلطة المنتفك أو الخزاعل

في سنة 1710م اتجه حسن باشا في حروبه نحو عشائر دجلة فهاجم عشائر آل أزيرج وعشائر أخرى فحرق القرى والمزارع وخرب أنظمة الري ونهب حاصلات الفلاحين، وبعد ذلك هاجم عشائر ربيعة والمياح ونكل بها.

بعد سنة 1710م وعبر ستة أعوام من الحروب الدامية، استقامت الأمور لحسن باشا الذي فرض بالحديد والنار سلطته العسكرية والسياسية في العراق.

حسن باشا وسقوط الدولة الصفوية

في سنة 1500م أعلنت مجموعة من قبائل التركمان الشيعية الموالية للبيت الصفوي في أذربيجان (شمال غربي إيران)، ثورة شيعية بقيادة إسماعيل بن الشيخ حيدر الصفوي، غلب عليها طابع الغلو والتطرف المذهبي، وفي تبريز عاصمة أذربيجان الإيرانية، خلع إسماعيل قائد تلك الثورة اللباس التقليدي لأجداده من شيوخ الصوفية، ولبس التاج فكان أول ملوك تلك الدولة ذات الأصول التركمانية، والتي عُرفت باسم الدولة الصفوية نسبة إلى جده الأعلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي.[1]

تربع الشاه إسماعيل في سدة الحكم ولم يكن قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وحكم الدولة الصفوية طيلة أربعين عاماً قضاها في الحروب وبناء صرح دولته الفتية، وقد سلك الشاه إسماعيل أثناء حكمه طريق الاستبداد والتفرد بالحكم، وفرض مفاهيمه في إدارة الدين والدولة بالقوة الغاشمة، ومن المعروف أن الشاه إسماعيل أعلن التشيع الأمامي مذهب الدولة الرسمي، وكوّن جماعات مسلحة كانت تجوب المدن والقرى في إيران وتفتك بكل من لا ينصاع لمذهب الدولة الرسمي[2].

بعد وفاة الشاه إسماعيل في سنة 1523م ارتقى العرش الصفوي ابنه الشاه طهماسب وكان في العاشرة من عمره، وبالرغم من أن طهماسب كان أكثر اعتدالاً من والده الشاه إسماعيل وأوسع ثقافةً ولكنه خضع لنفوذ أمراء عسكر القزلباش وقضى سنين حكمه الطويل في إكمال مشروع بناء صرح تلك الدولة الفتية في ظروف بالغة التعقيد والصعوبة.

في سنة 1587م اعتلى الشاه عباس العرش الصفوي، وفي عهده انتقلت العاصمة الصفوية إلى أصفهان. كان الشاه عباس أرستقراطي النزعة يحتقر الفقراء والكادحين والطبقات الشعبية، ويميل إلى العمران والفخامة الأرستقراطية وحياة القصور والترف. وبذلك ابتعد عن الروح الصوفية التي غرسها أجداده الصفويون في أقاليم التركمان، وخرج عن تلك التقاليد التركمانية ذات الطابع الشيعي الصوفي، وأقام في إيران مجتمعاً حديثاً مشبع بالثقافة الفارسية.

---

(1) راجع ج1ص235 من هذا الكتاب

(2) راجع ج2ص43-ص53 من هذا الكتاب

تميز حكم الشاه عباس بالاستبداد والهيمنة على مختلف مناحي الحياة، وكان من مظاهر استبداده وهيمنته إقدامه على نقل مقر الحوزة الدينية الشيعية في إيران إلى العاصمة أصفهان، ليتمكن من وضع رجال الدين تحت مراقبته، وفي تلك الأثناء تعمد بإغداق الأموال والألقاب عليهم، وبذلك خلق مؤسسة دينية شيعية مواليه له في أصفهان، انهمك رجالها بمصالحهم الشخصية، ومالوا بصورة عامة إلى الترف والفخفخة والحياة الأرستقراطية، ومن المرجح أن ذلك كان من الأسباب المهمة التي جعلت حركة الدراسة الدينية في أصفهان تتسم بفقدان الأصالة وعدم القدرة على التجديد.

من المعروف أن الشاه عباس بالغ في نهج سياسة دينية تهتم بتقديس المظاهر في المذهب الشيعي لحد الإسفاف، وفي عهده اقتصرت الفعاليات الدينية على الطقوس الفارغة والمبالغة في تزيين مشاهد الأئمة بالذهب، وتحولت مفاهيم الدين إلى صورة بدائية يشوبها الجمود. وفي ذات الوقت نجد أن الشاه عباس انغمس في حياة الترف ومجالس الشراب وتناول المحرمات من الطعام والشراب.[1]

مرحلة ضعف وانحطاط الدولة الصفوية

بعد وفاة الشاه عباس حكم في إيران أربعة ملوك هم الشاه صفي والشاه عباس الثاني والشاه سليمان والشاه حسين. وفي عهد أولئك الملوك بدأ الضعف والانحلال يدب في جسم الدولة الصفوية التي نقلها الشاه عباس إلى مرتبة عالية من القوة العسكرية والتقدم الحضاري، وحياة الترف والبذخ الأرستقراطي.

في عهد أولئك الملوك، طفت على السطح الجوانب السلبية للحكم الصفوي، فقد انتشر الفساد الإداري في مختلف قطاعات الدولة، وتفاقمت ظاهرة شرب الخمور والتفسخ في البلاط الصفوي، وكان سلوك الشاه سليمان نموذجاً لذلك العهد، فقد كان ذلك الشاه خاملاً ضعيف الرأي، انغمس منذ عهد مبكر في حياة الفسق والفجور وشرب الخمر وتعاطي الأفيون، حتى أن أصحاب المصالح وأهل السوء كانوا يتقربون إليه بإهداء الخمور المعتقة والأصناف الجيدة من الأفيون.

في سنة 1693م توفى الشاه سليمان وتولى بعده الشاه حسين الصفوي الذي قُدر له أن يكون أخر ملوك الصفويين. كان الشاه حسين حسن السيرة طيب القلب ولكنه ضعيف الرأي قليل التدبير غير قادر على إدارة دفة الحكم في تلك الفترة المضطربة التي كانت تنحدر فيها الدولة الصفوية نحو الهاوية.

(1.) إبراهيم الدسوقي شتا – الثورة الإيرانية الجذور الأيدلوجية، ص30

في عهده بلغت القوات المسلحة الصفوية أدنى مستوياتها، وأصبحت عاجزة عن أداء مهامها العسكرية في الدفاع عن الدولة، مما أثار أطماع أعدائها الخارجيين، وحفّز الشعوب التي كانت ترزح تحت الحكم الصفوي الجائر للثورة والتمرد، وهذا ما حدث في الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الصفوية التي كان غالبية سكانها من أهل السنة.

في مقاطعة قندهار التابعة للدولة الصفوية انتشرت في عهد الشاه حسين حركات التمرد ضد الحكومة، ولمواجهة تلك الحركات عينت حكومة الشاه حاكماً شديد المراس من أصل جورجي يدعى (كركين خان). الذي شن حرباً شعواء ضد القبائل الأفغانية السنية ونكّل بها أبشع تنكيل، وبعد الانتصار عليها اقتاد زعيم التمرد الأمير ويس مخفوراً إلى العاصمة أصفهان.

كان لسياسة القمع الشديدة التي اتبعها كوركين خان ضد القبائل الأفغانية، الأثر الكبير في اندلاع الثورة ضد الحكم الصفوي في مقاطعتي قندهار وهراة حيث فقدت الحكومة الصفوية سيطرتها على تلك الأقاليم الثائرة. أثناء وجوده في أصفهان تمكن الأمير الأفغاني ويس، التأثير على السلطان حسين الصفوي والعودة إلى وطنه. في هذه المرة واصل ذلك الأمير الأفغاني عمله ضد الحكومة الصفوية بسرية وحذر شديد. وبعد أن أكمل استعداداته العسكرية أعلن الثورة ضد حكومة الشاه حسين وشرع بالزحف على العاصمة أصفهان.

كان سكان تلك الأقاليم الأفغانية من أهل السنة، وكما أن الحكام الصفويين اتخذوا من التشيع سلاحاً للتوسع وبسط النفوذ على سكان تلك الأقاليم، فإن رجال القبائل السنية اتخذوا من التسنن سلاحاً للمطالبة بإمارات مستقلة وللدفاع عن كياناتهم وعن أراضيهم ضد الفاتحين الأجانب، وقد أزداد تأثير ذلك السلاح حينما ازداد ظلم وتعسف حكام الدولة الصفوية ضد السكان المحليين وخاصة أهل السنة منهم.

كان متوقعاً أن يثير الأمير ويس مشاعر الأفغان الوطنية والدينية ضد الحكم الصفوي الشيعي ليجمع حوله أكبر عدد من الأنصار، وليكسب إلى جانبه الحكومات الإسلامية السنّية، وفي مقدمتها الدولة العثمانية، وعلى هذا الأساس شن الأمير ويس حملة طائفية شديدة ضد الحكومة الصفوية الشيعية ونشر فتاوى دينية صادرة من عدد من علماء أهل السنة في مكة المكرمة وفي اسطنبول تبيح دم الشيعة وتدعو رجال القبائل الأفغانية إلى نقض بيعة الحكام الصفويين والثورة عليهم.

في أول معركة دارت بين الجيش الصفوي وجيش الأمير ويس تمكن رجال القبائل الأفغانية من إنزال هزيمة منكرة بجيش الشاه حسين. ولكن الصفويين جهزوا جيشاً كبيراً تمكن من هزيمة الأفغان وملاحقتهم حتى مدينة قندهار.

حول مدينة قندهار دارت معارك عنيفة بين الطرفين تكبد أثناءها رجال القبائل الأفغانية خسائر كبيرة، وحينما عرضوا على القائد الصفوي الاستسلام بشروط معينة أصرّ القائد الصفوي على استسلام الأفغان بدون قيد أو شرط، ولكن رجال الأفغان أبوا الاستسلام بتلك الطريقة المذلة وواصلوا القتال ببسالة وعزيمة، وبعد معارك دامية تمكن رجال القبائل الأفغانية من إنزال هزيمة منكرة بالجيش الصفوي الذي قُتل قائده وخمسة وعشرين ألفاً من رجاله. بعد تلك الهزيمة أرسل الشاه حسين جيشاً آخر ولكنه واجه هزيمة مماثلة.[1] .هكذا تمكن الأمير ويس من أن يحرر بلاده من الحكم الصفوي ويعلن استقلال إمارة قندهار. بعد ذلك الانتصار الساحق، بدأ الأمير ويس استعداداته العسكرية للزحف على العاصمة الصفوية أصفهان، ولكن المنيّة عاجلته قبل إنجاز تلك المهمّة.

بعد وفاة الأمير ويس بمدة تولى مقاليد الأمور في قندهار ابنه الشاب الأمير محمود، وفي أثناء ذلك اتسعت حركات التمرّد في بلاد الأفغان وشملت مقاطعات أخرى، إذ قامت ثورة ضد الدولة الصفوية في إقليم هراة بقيادة أمير هراة المدعو أسد الله الذي تمكن هو الآخر من هزيمة الصفويين والاستقلال بإقليم هراة.

معركة كلنباد

في سنة 1721م زحف الأمير محمود بجيش لا يقل عن عشرين ألف مقاتل بهدف الاستيلاء على الأقاليم الشرقية من إيران، وبعد سلسلة من المعارك تمكن رجال القبائل الأفغانية من الاستيلاء على كرمان. وفي سنة 1722م واصل الأمير محمود توغله في الأراضي الإيرانية بدون مقاومة تذكر حتى بلغ مشارف العاصمة أصفهان.

ضربت القوات الأفغانية حصاراً شديداً حول أصفهان دام أكثر من ثلاثة شهور، أحرق أثناءها رجال الأمير محمود القرى والضياع والمزارع حول العاصمة أصفهان، وبعد أن طال الحصار قررت حكومة الشاه الخروج بجيشها لمواجهة القوات الأفغانية. كان جيش الشاه حسين كثير الزخارف والأبهة، أما المقاتلون الأفغان فكانوا لا يملكون سوى السيوف والرماح، وحينما ابتدأ القتال شن الأفغان هجوماً عنيفاً على أحد أجنحة الجيش الصفوي وتمكنوا بعد معركة شديدة من دحر تلك الفرقة الصفوية وتشتيت شمل رجالها. بعد ذلك التف فرسان الأفغان خلف الجيش الصفوي وسيطروا على مدافع صفوية كانت تتأهب لإطلاق النار عليهم فصوبوها نحو معسكر الشاه وباشروا بإطلاق القنابل على أعدائهم الصفويين مما تسبب بمقتل عدد

(1) حسن كريم الجاف – الوجيز في تاريخ إيران، ج3ص59

وكذلك عبد الله سليمان ظاهر – تاريخ الشيعة السياسي الثقافي الديني ج3ص384

من رجال الشاه. ذعر عساكر الشاه من سقوط القنابل عليهم فتفرقوا ولاذوا بالفرار تاركين كل شيء وراءهم غنيمة باردة لأعدائهم.

بعد تلك المعركة الحاسمة أنهار الجيش الصفوي وتفرق في الأنحاء بعد أن عاد كل قائد برجاله إلى بلاده. لم يبق في أصفهان سوى الحرس الملكي وبعض المجندين الذين كانت تغلب عليهم الزركشة والأبهة ولكنهم لا يصلحون للقتال، وهكذا طال الحصار وساءت الأوضاع واستمرت معاناة السكان.

أدرك الشاه الصفوي عمق المأساة، وضعف وعزلة الحكم عن الشعب الذي رفض الاستجابة لنداء حكومته الفاسدة بالرغم من تلك التهديدات الخارجية، وأمام ذلك الواقع المر لم يرى بداً من الاستسلام للعدو. في اليوم التالي جاءت الرسل تخبر الأمير محمود بعزم الشاه الصفوي على الاستسلام، فجلس في أحد القصور التي استولى عليها بانتظار الشاه حسين.

دخل الشاه حسين الصفوي على الأمير الأفغاني محمود وخاطبه قائلاً ما معناه:

يا ولدي إن الله لا يريد لي أن أملك زماناً أطول من هذا وقد جاءت ساعة صعودك على عرش إيران، فأنا أتنازل لك عنه وعن السلطنة، جعل الله حلمك سعيداً، وإن حكمت فاحكم بسلام.[1]

ثم نزع العمامة الملكية عن رأسه و وضعها على رأس الأمير محمود. وكان ذلك في 22 تشرين أول (أكتوبر) سنة 1722م.

اعتبر الأفغان تنازل الشاه حسين عن العرش بمثابة النهاية للدولة الصفوية الشيعية وقيام حكومة أفغانية سنية محلها في إيران. وعلى هذا الأساس أصبح الأمير الأفغاني محمود، يعد نفسه سلطان دولة سنية جديدة تشمل بلاد الأفغان وإيران الصفوية.

أحدث سقوط الدولة الصفوية فراغاً سياسياً وعسكرياً خطيراً في الشرق، شمل أقاليم الإمبراطورية الصفوية المترامية الأطراف مما أثار أطماع القوى الإقليمية الأخرى وفي مقدمتها روسيا القيصرية والدولة العثمانية.

في تلك الحقبة التاريخية التي شاهدت ضعف وانحلال الدولتين الصفوية والعثمانية، برز دور روسيا الإقليمي بعد أن بلغت في عهد بطرس الأكبر أعلى مراحل قوتها العسكرية والسياسية، وهذا مما زاد من أطماعها في التوسع جنوباً على حساب الإمبراطوريتين العثمانية و الصفوية، وحينما اتسعت حركات التمرد

(1) عبد الله سليمان ظاهر – تاريخ الشيعة السياسي الثقافي الديني ج3ص393

في الأقاليم الأفغانية التابعة للدولة الصفوية زاد اهتمام روسيا القيصرية بتلك التطورات وأخذ بطرس الأكبر يرسل العيون والجواسيس لتقصي الأخبار ومراقبة الأحداث.

حسن باشا والعدوان على إيران

كان حسن باشا في تلك الأيام، قد أكمل ثمانية عشر عاماً في حكم العراق، حقق أثناءها نجاحاً لم يحققه أي حاكم عثماني بالعراق منذ مدة طويلة. ولابد أنه كان يشعر بأهمية مركزه في وسط تلك الأحداث التاريخية الجسام، ويرى أن اليوم الذي يحقق فيه أحلام العمر قد حل، لأن أي توسع مهم للإمبراطورية العثمانية في الأراضي الإيرانية لابد أن ينطلق من أرض العراق، وأن حكومة اسطنبول لم يكن بإمكانها إنجاز الكثير عسكرياً دون الاعتماد عليه، وعلى القوة العسكرية المهمة التي كوّنها بالعراق والمتمثلة بجيش المماليك الكرج، ولذا فإن أي توسع مرتقب نحو الشرق، كان لابد أن يجعل منه الرجل القوي في المنطقة.

وفي غالب الظن فإن مثل تلك الاعتبارات أثارت في نفس حسن باشا طموحات وأحلام كبرى أخذت تراوده وهو يرى ما كان يجري من أحداث جسام على حدوده الشرقية، والتي تزامنت مع الانتكاسات التي كانت تواجهها الإمبراطورية العثمانية المتهرئة، خاصةً بعد توقيع معاهدة بساروفيتس التي تنازلت بموجبها حكومة اسطنبول عن الكثير من الأراضي والامتيازات لصالح حكومات النمسا، والبندقية، وروسيا القيصرية[1].

كان بعض رجال السلطان العثماني يرون أن على الحكومة العثمانية وجوب التعاون مع الدولة السنية الجديدة في إيران، ومساعدة الأمير الأفغاني أشرف لتمكينه من القضاء على بقايا الحكم الصفوي الشيعي في تلك البلاد. ولكن حسن باشا وقف على النقيض من تلك الآراء وشن من بغداد حملة واسعة لتحريض حكومة السلطان لاستغلال الفراغ السياسي والعسكري الذي حصل بعد سقوط الدولة الصفوية واحتلال إيران قبل فوات الأوان.

بعد دجالات مطولة رجحت كفة صقور الحرب وقررت حكومة السلطان تجهيز حملة عسكرية بقيادة حسن باشا لاحتلال إيران. حاول رجال المؤسسة العسكرية في اسطنبول إعطاء تحركهم طابعاً يبدو وكأنه غير موجه ضد الأفغان السنة بل ضد الفرس الشيعة، وعلى هذا الأساس أصدر شيخ الإسلام العثماني في سنة 1723م فتوى قال فيها:

---

(1) محمد فريد بك. تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص316

إن العجم لا يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، بل يعدونهم كفاراً مرتدين ويسبونهم علناً، ويرمون السيدة عائشة بالإفك، ويؤولون آيات قرآنية كثيرة على خلاف مقتضى القواعد العربية، ويجوزّون قتل أهل السنة، ويبيحون أموالهم. وإذا أسروا نساء المسلمين، استحلوا وطأهن دون عقد كما هو الحال مع سبايا غير المسلمين ... وعلى هذا الأساس أفتى شيخ الإسلام بأن "العجم الشيعة" مرتدين تجري بحقهم أحكام أهل الردة، وتجعل بلادهم دار حرب[1].

بعد صدور تلك الفتوى، صدر الأمر السلطاني بلزوم اجتياح الأراضي الإيرانية، ثم صدر الأمر بتعيين والي بغداد حسن باشا قائداً لجبهة الحرب. استلم حسن باشا الأوامر السلطانية لاجتياح الأراضي الإيرانية واحتلال همدان، واستلم معها نسخة من فتوى شيخ الإسلام. في الحال باشر بالعمل لتجهيز حملة عسكرية لأداء تلك المهمة الكبيرة. حشد حسن باشا عدداً كبيراً من المقاتلين، بما في ذلك جيش المماليك الكرج، وفرق الانكشارية، وفرقة عسكرية بقيادة والي الموصل حسين باشا الجليلي، وساق في تلك الحملة العسكرية رجال القبائل الكوردية والعربية.

زحفت الجيوش العثمانية بقيادة حسن باشا نحو الحدود الإيرانية باتجاه كرمانشاه، وبعد مسيرة قصيرة انضمّت إلى جيشه قوات صهره عبد الرحمن باشا القادمة من كركوك، ثم انضمت إليه قوات أخرى يقودها شيوخ الكورد وأمراء الإقطاع العسكري. وحينما أقترب من كرمانشاه تقدم حاكمها وسلم حسن باشا مفاتيح المدينة. وهكذا استولى حسن باشا على كرمانشاه بدون قتال.

وفاة حسن باشا في كرمانشاه

حل موسم الشتاء وما زال حسن باشا في كرمانشاه وهو يعلم بأن احتلال همدان يحتاج إلى استعدادات كبيرة وتنسيق عسكري مع الجيوش العثمانية التي كانت تحتل شمال إيران، وبسبب برد الشتاء القارص، كان لابد من الانتظار حتى الربيع القادم. ولكن حسن باشا توفى في كرمانشاه قبل موسم الربيع.

---

(1) تاريخ العراق بين احتلالين – حوادث سنة 1135هـ (عباس العزاوي –ج5، ص205)

كذلك حديقة الزوراء للشيخ عبد الرحمن السويدي ج 1 ــ ص 94

حكومة أحمد باشا

جاءت وفاة حسن باشا بمثابة ضربة قاصمة لأمراء المماليك الكرج الذين أُخذوا على حين غرة، ويبدو أنهم أصيبوا بارتباك شديد من هول المفاجئة بعد غياب سيدهم وقائدهم وهم في وسط الأعداء بعيدون عن بغداد قاعدة حكمهم، وفي تلك الساعات العصيبة كان عليهم أن يتحركوا بسرعة وحذر.

أخفى أمراء العسكر الكرج خبر وفاة سيدهم حسن باشا، ريثما يقومون ببعض التدابير اللازمة للسيطرة على الموقف العسكري في تلك الظروف الحرجة، وبعد مشاورات سرية فيما بينهم، ولكي لا يفلت زمام السلطة من أيديهم، قرروا مبايعة ابن حسن باشا الوحيد أحمد باشا، الذي كان يشغل آنذاك منصب والي البصرة.

وصل أحمد باشا كرمانشاه في 21 رمضان (أوائل حزيران) حيث جرى له استقبال كبير من قبل أمراء المماليك الكرج، وتم اطلاعه على حقيقة وضع القوات العسكرية، التي بدت عوامل التصدع بين بعض فرق المقاتلين تطفو على السطح وتؤثر في معنويات الجيش، فكان عليه أن يتحرك بسرعة لمعالجة الموقف. تحرك أحمد باشا بسرعة وأكمل استعداداته العسكرية، وقبل الشروع بالزحف أرسل مبعوثيه إلى حاكم همدان طالباً منه الاستسلام، ولكن حاكم همدان كان يعد نفسه تابعاً للحكومة الأفغانية ولذلك كتب إلى العاصمة أصفهان يطلب الموافقة على تسليم المدينة للعثمانيين بدون حرب، ولكنه لم يستلم أي رد من أصفهان. في أواخر حزيران من سنة 1724م باشر أحمد باشا بالزحف على همدان بقصد الاستيلاء عليها بالقوة، وبعد مسيرة طويلة وصل جيش أحمد باشا همدان وضرب الحصار حولها، وبعد فترة وجيزة بدأت مدافعه قصفها الشديد على المدينة. في تلك الأثناء جرت عدة محاولات لاختراق تحصينات همدان، ولكن المدافعين تمكنوا من رد تلك الهجمات. بعد فشل تلك الهجمات حاول المهاجمون حفر أنفاق تحت الأسوار للمرور منها إلى داخل المدينة، ولكن انفجارات الألغام التي زرعها المدافعون ردتهم على أعقابهم، وبعد محاولات عديدة وجهود مضنية نجح جيش أحمد باشا في فتح ثلاث فجوات في السور اندفع من خلالها المهاجمون إلى داخل المدينة.

جرى داخل مدينة همدان قتال شديد بين الطرفين دام ثلاثة أيام بلياليها فكانت تلك عن حق مجزرة رهيبة انتهت باستسلام المدينة وإعلان الهدنة التي كان من شروطها إعلان همدان ولاية عثمانية تقام فيها صلاة الجمعة باسم السلطان العثماني.

عودة أحمد باشا إلى بغداد

بعد الاستيلاء على همدان أخذت أخبار مقلقة تتوالى على أحمد باشا، مفادها أن تطورات سياسية خطيرة تحدث في العراق، حيث أن العشائر العراقية استفادت من غياب السلطة بسبب تواجد الجيش في إيران، فأخذت تتحرك لاستعادة سيطرتها ومواقعها القديمة، وقامت بالإغارة على مراكز الحكومة وأخذت تمتنع عن دفع أية ضريبة للحكومة.

في الوقت نفسه أخذ التذمر ينتشر بين صفوف الجيش الذي أنهكته ثلاثة أعوام من الحرب، كما أن تصعيد الخلافات مع الأفغان والتوغل بالعمق الإيراني كان له أثر سلبي على الكثير من قطاعات الجيش. كل تلك المشاكل أرغمت أحمد باشا على الرجوع إلى بغداد.

تحالف العشائر العراقية

في أوائل سنة 1725م وبعد عودة أحمد باشا من إيران وتنكيله بعدد من العشائر العراقية، أجتمع عدد من رؤساء قبائل عرب العراق من السنة والشيعة، وأجروا سلسلة من المشاورات، واتفقوا على عقد لقاء موسع لهم في منطقة الفرات الأوسط قرب الكفل[1].

في اجتماعهم قرب الكفل بحث رؤساء العشائر العراقية مشاكلهم وما تعانيه عشائرهم من حكومة أحمد باشا، وبعد المداولات عقدوا فيما بينهم حلفاً ضد حكومة أحمد باشا، وقد دخل في ذلك الحلف عدد كبير من عشائر عرب العراق السنية منها والشيعية منها عشائر شمر، وبنو لام، وساعدة، وآل شبل، والخزاعل، وأخذ رجال تلك العشائر يهاجمون مراكز الحكومة

. لمواجهة ذلك التمرد الخطير، الذي جمع العشائر العراقية السنية والشيعية، حشد أحمد باشا جيشاً كبيراً مزوداً بالمدافع ومختلف الأسلحة الفتاكة، وهاجم به تجمعات تلك العشائر.

(1) الكفل بلدة في منطقة الفرات الأوسط تقع بين الكوفة والحلة.

الصراعات العثمانية الأفغانية

مسألة الخلافة العثمانية

بعد اجتياح الجيوش العثمانية حدود إيران واحتلالها مساحات شاسعة من أقاليمه الغربية وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية، نظم الأفغان حملات احتجاج واسعة باعتبار أنهم حكام إيران الجدد وأن العثمانيين خالفوا معاهدات الحدود الموقعة بين الدولتين منذ زمن السلطان مراد الرابع، ولكنهم تجنبوا المواجهة العسكرية مع العثمانيين.

كان الأفغان في جميع محادثاتهم منذ عهد حسن باشا، يؤكدون للعثمانيين اعترافهم بشرعية الخلافة العثمانية واحترامهم لها، ويكررون بأنهم من أهل السنة مثلهم، وكانت مطالبهم دائما، تنحصر في طلب جلاء القوات العثمانية عن الأراضي الإيرانية، غير أن تلك المطالب الأفغانية، كانت تتعارض مع أطماع المؤسسة العسكرية العثمانية وسياستها الهادفة إلى احتلال إيران واقتسامها مع روسيا القيصرية، وقد كانت تلك الأطماع السبب الحقيقي الذي أدى إلى التقارب الروسي العثماني، وإلى التعاون والتنسيق بينهما لاجتياح أقاليم الإمبراطورية الصفوية، ولذلك فإن العثمانيين تجاهلوا مطالب الأفغان ونداءاتهم، ولابد أن احتلال همدان وإلحاقها بالإمبراطورية العثمانية جاء دليلاً عملياً على إصرار العثمانيين على الاستمرار في سياسة الفتح وإلحاق الأراضي المحتلة بالإمبراطورية العثمانية، تلك السياسة التي كان حسن باشا من أشد المتحمسين لها، لأنه كان يظن بأنه أول الرابحين منها.

منذ البداية كان الإدعاء بانتقال الخلافة الإسلامية إلى السلاطين العثمانيين موضع خلاف وجدال في العالم الإسلامي لأسباب دينية وسياسية. بعد سقوط الدولة العباسية في سنة 1258م، تولى الحكم في مصر التي كانت ترزح تحت حكم المماليك، مملوك يدعى "قطز" وبعد مرور سنة قُتل قطز غيلة على يد قائد مملوكي آخر يدعى بيبرس البندقداري. بعد أن مسك البندقداري بمقاليد الأمور، أتى برجل أسمر قيل أنه جاء إلى مصر مع جماعة من الأعراب ويدّعي إنه ابن الخليفة العباسي الظاهر.

جمع بيبرس البندقداري كبار رجال الدين في مصر وجعلهم يقرّون صحة نسب ذلك الرجل الذي ادعى أنه قادم من بغداد، وبعد ذلك أخذ له البيعة بحضورهم ولقبه بـ(المستنصر بالله). بعد انتهاء تلك المراسم،

تقدم ذلك "الخليفة" المزعوم وبايع بيبرس البندقداري بالسلطنة وفوض أليه أمور البلاد. ولكن ذلك الخليفة المزعوم قتل أثناء الحملة العسكرية التي بعث بها بيبرس للاستيلاء على بغداد، باسم ذلك الخليفة المزعوم.

بعد مرور عام، أتى بيبرس برجل آخر، ادعى هذه المرة انه حفيد الخليفة العباسي المسترشد بالله، وجمع له علماء الدين مرة أخرى وأخذ له البيعة ولقبه بـ(الحاكم بأمر الله) وبدوره فوض الخليفة الجديد الأحكام بيد بيبرس كما كان الحال في المرة السابقة، وهكذا جلس في مصر في ظل حكم عسكر المماليك، خليفة آخر مسلوب الإرادة لا حول له ولا قوة، يشغل منصباً شكلياً فارغ المعاني. ولذلك لم تعترف أي جهة أسلامية بتلك الخلافة المزعومة.

ولما كان العثمانيون قد انتزعوا خلافتهم في عهد السلطان سليم من خلفاء مصر، لذلك لم يعترف أحد في العالم الإسلامي بالخلافة العثمانية، خاصة أن غالبية فقهاء المذاهب الإسلامية يحصرون الخلافة بقريش. وهذا كان موقف فقهاء الأفغان من أهل السنة.

إن الضجة التي ثارت بعد أن فجر الأفغان مسألة الخلافة العثمانية، دلّت على أن أوساطاً سنية واسعة داخل الإمبراطورية العثمانية وخارجها، لم تكن مقتنعة بما يدعيه الحكام العثمانيون، ولذا فإن الدعاية الأفغانية والتشكيك بخلافة آل عثمان أخذت تنتشر كالنار بالهشيم. ولإنهاء تلك المشكلة بسرعة، قررت حكومة اسطنبول سلوك طريق الحرب. وعلى هذا الأساس صدرت التعليمات إلى شيخ الإسلام في اسطنبول بإصدار فتوى مناسبة تبرر إعلان الحرب ضد الأفغان، بالرغم من أنهم من أهل السنة.

أصدر شيخ الإسلام فتوى جديدة استند فيها إلى حديث نبوي يقول: "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما ..." وإنه لا يصح اجتماع إمامين إلاّ أن يكون بينهما وبين مملكتيهما حاجز عظيم، وإلاّ يعد الثاني باغياً وقتاله واجب".

في سنة 1726م صدر الفرمان إلى أحمد باشا والي بغداد بشن حرب شاملة ضد الأمير أشرف واجتياح المناطق التي تسيطر عليها القوات الأفغانية وإنهاء وجودها في إيران. ومن أجل تحقيق ذلك، عبأت الدولة جميع إمكاناتها العسكرية من الأناضول وديار بكر حتى البصرة.

باشر أحمد باشا بحشد جيش كبير فاق في تعداده وتجهيزاته ما سبقه من جيوش، فبالإضافة إلى جيش المماليك الكرج، ساقت الدولة قوات كبيرة تألفت من خمسين ألف مقاتل جاؤوا من الأناضول ومن ديار بكر ومن الموصل، وساقت الدولة قوات كبيرة من الكورد، وأمراء الإقطاع العسكري من آل الجليلي.

الحرب وانهيار الجبهة العثمانية

لابد أن أحمد باشا كان ينتظر نصراً حاسماً وسريعا يتمكن من بعده الاندفاع للاستيلاء على العاصمة أصفهان وما وراءها من أقاليم .

أما الأفغان فقد كانت مهمتهم في غاية الصعوبة لقلة أعداد مقاتليهم، ولذا اعتمدوا بصورة رئيسية على المناورة، ولابد أنهم كانوا على علم بهبوط الروح المعنوية بين صفوف الجيش العثماني وانتشار التذمر بين المقاتلين وخاصة الكورد الذين لم يكونوا راغبين في محاربة أخوتهم في الدين من أهل السنة.

ولذا انتشر دعاة الأفغان بين صفوف الكورد يبثون فيهم روح الاحتجاج والتمرد، ويؤكدون على أن ما تقوم به حكومة السلطان حرام ومناف للشرع الشريف، لأنها تحارب الأفغان وهم مسلمون من أهل السنة، والسلطان يحاربهم ويسلط عليهم النصارى (أي الروس) والشيعة (أي الصفويين).

بدل الانتصار الكاسح والاندفاع نحو العاصمة أصفهان حدث ما لم يكن بالحسبان فقد انهارت الجبهة العثمانية بعد حدوث تمرد واسع خاصة بين الكورد الذين رفضوا مقاتلة أخوانهم الأفغان من أهل السنة، وتركوا جبهة القتال وعادوا إلى ديارهم. ولم يبقى مع أحمد باشا سوى جيش المماليك الكرج وأمراء الحرب من آل الجليلي، مما اضطر أحمد باشا ترك أسلحته الثقيلة والانسحاب على عجل إلى كرمانشاه.

في سنة 1727م حشد العثمانيون جيوشهم وأمروا أحمد باشا بالعودة إلى الحرب، ولكن الحرب لم تحدث هذه المرة، إذ توصل الطرفان بعد مفاوضات استمرت لعشرة أيام إلى توقيع معاهدة للصلح لتقاسم إيران، وقد احتوت الاتفاقية على اثنتي عشرة مادة منها:

- الاعتراف بأشرف خان ملكاً على إيران، على أن يقبل الخضوع من الناحية الروحية إلى الخلافة العثمانية.

- إلحاق أقاليم همدان وكرمانشاه وأردلان ولورستان، بالإمبراطورية العثمانية.

- وضم نهاوند وخرم آباد وديار اللور وإمارة الحويزة إلى العراق.

بعد التوقيع على معاهدة الصلح التي تم بموجبها اقتسام إيران بين الأفغان والعثمانيين، رجع أحمد باشا إلى بغداد ليعالج مشاكله الداخلية، وفي سنة 1728م سار أحمد باشا بجيش كبير نحو الجنوب ليقطف أول ثمرات تلك الاتفاقية التي ألحقت إمارة الحويزة بحكومة العراق، وبعد أن توغل بجيشه هناك تقدم إليه سكانها وسلموه مفاتيح البلد مع هدايا كثيرة.

ظهور نادر علي في إيران

بينما كان العثمانيون منشغلين باقتسام إيران مع روسيا القيصرية من جهة ومع حكومة الأفغان من جهة أخرى، كان الشعب في إيران بمختلف مكوناته يتحفز لطرد الغزاة من أرضه. فقد فجرت اتفاقيات التقسيم ومنها اتفاقية سنة 1727م التي وقعها أحمد باشا مع الأفغان براكين الغضب والمشاعر الوطنية لدى الإيرانيين، فأخذت أعداد كبيرة منهم تلتف حول طهماسب الذي أعلن نفسه الوريث الشرعي للعرش، وأخذ دعاته يحفزون الشعوب الإيرانية ويستنهضونها لتحرير الوطن. وكان من بين الذين لبوا نداء الشاه طهماسب شاب مغامر من أصول تركمانية أسمه "نادر علي خان".

ولد نادر علي في ولاية خراسان سنة 1688م لأسرة ريفية تنتمي إلى قبيلة الأفشار الشيعية القوية الشكيمة، وهي إحدى قبائل التركمان الكبرى التي انضمت إلى جيش الشاه إسماعيل إبان الثورة الصفوية[1]. بدأ نادر علي حياته راعياً ثم ترأس جماعة من قطاع الطرق. ولشجاعته وذكائه ومواهبه القيادية، أخذت جماعته المسلحة تكبر، ونفوذه ينمو بين القبائل المحلية. ولذا حينما انضّم إلى الشاه طهماسب عينه ضابطاً في الجيش الغير نظامي الذي أخذت جماعات كبيرة من عشائر الأفشار التركمانية والكورد تلتحق به.

في فترة قصيرة وجد الشاه طهماسب أن نادر علي أصبح يقود جيشاً من الثائرين يضم أكثر من خمسة آلاف مقاتل. لذلك عهد طهماسب إليه بمهمة تحرير خراسان ذات الموقع الاستراتيجي المهم في شمال شرق إيران.

حشد نادر خان قواته وهاجم خراسان وتمكن من انتزاعها من يد الأعداء. بعد ذلك الانتصار الباهر منحه الشاه لقب "طهماسب قلي" وسلمه القيادة العامة للجيش الوطني. وهكذا وجد نادر علي نفسه على رأس جيش الشاه الذي أوكل إليه الاضطلاع بمهمة تحرير البلاد من الغزاة.

توجه نادر علي أولاً لمحاربة الأفغان، وفي سنة 1729م اشتبك معهم بسلسلة من المعارك حقق فيها انتصارات كبيرة، تمكن خلالها من انتزاع العاصمة أصفهان من أيديهم. على أثر ذلك عاد الشاه طهماسب إليها وتربع على عرش أجداده الصفويين، ومنح نادر علي خان منصب "اعتماد الدولة". الذي كان يوازي مركز الصدر الأعظم أو رئيس الوزراء. من هناك واصل نادر علي مطاردة الأفغان، واشتبك معهم آخر مرة

(1) ج1ص239 من هذا الكتاب

في معركة حاسمة قرب مدينة شيراز الجنوبية انتهت بسحق القوات الأفغانية وتشتيتها والقبض على الأمير أشرف خان وقتله. وبذلك انتهت دولة الأفغان في إيران.

بعد تلك الانتصارات، انقض نادر علي خان على الجيوش العثمانية في مقدمة همدان والتي كانت بقيادة عثمان باشا، مما اضطرها إلى التراجع على عجل ودخول همدان والاحتماء بأسوارها مع القوات العثمانية التي كانت بقيادة تيمور باشا، وبعد سلسلة من المعارك العنيفة تمكن نادر علي خان من تدمير تلك القوات، وقتل القائدين عثمان باشا و تيمور باشا، والاستيلاء على جميع مدافعهم وبقية أسلحتهم ومعداتهم.

دخل نادر علي خان مدينة همدان فاستقبله أهلها استقبال الأبطال. أما فلول القوات العثمانية فقد تراجعت إلى كرمانشاه ومنها إلى خانقين، وبعد الانتهاء من تلك المعارك استعد نادر علي لتحرير تبريز وباقي المناطق الشمالية والغربية.

إزاء تلك التطورات السريعة، وبسبب الظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة العثمانية اضطر الصدر الأعظم إبراهيم باشا أن يبعث برسالة إلى طهماسب يعرب فيها عن استعداد الحكومة العثمانية لعقد معاهدة سلم وحسن جوار بين الدولتين، وفي تلك الأثناء تلقى أحمد باشا تعليمات للعمل على تحسين علاقات الجوار مع إيران.

بعد أن انسحبت القوات العثمانية من كرمانشاه إلى ما وراء الحدود الإيرانية، ثار الانكشارية وأشعلوا نار الفتنة متهمين حكومة السلطان بالضعف وعدم الرغبة بالحرب وأنها تميل إلى الصلح مع العجم، وسرعان ما امتدت نار الثورة إلى طبقات أخرى وانتشرت أعمال السلب والنهب في اسطنبول، وكان زعيم تلك الثورة يدعى البارون خليل الألباني (بترونا خليل).

في خريف سنة 1731م استلم أحمد باشا من الصدر الأعظم الجديد تعليمات تطلب منه أن يركن للصلح.

بدأت المفاوضات في همدان في الأشهر الأخيرة من سنة 1731م واستمرت خلال الأشهر الأولى لسنة 1732م، وبعد أن حازت على موافقة الطرفين تم توقيع معاهدة للصلح على المبادئ التالية:(1)

1- يكون نهر آراس في أذربيجان ودرنة في اتجاه العراق ودرتنك وغيرها من الحدود القديمة أساساً لخط الحدود الفاصل بين الدولتين.

---

(1) العلاقات العراقية الإيرانية خلال خمسة قرون، ص78

2– خضوع مدن كنجة وتفليس وروان وجميع مناطق شيروان وشمّاخي وداغستان وتوابعها للسيادة العثمانية.

3– ترك مقاطعات تبريز وأردلان وهمدان والحويزة (دولة المشعشعين) ولورستان إلى الدولة الإيرانية.

4– انسحاب الدولة العثمانية من جميع المناطق الإيرانية التي احتلتها في السنوات العشر الماضية، والعودة إلى حدود معاهدة 1639م.

5– إطلاق سراح جميع الأسرى في كل من الدولتين، وإعادة جميع المدافع التي استولى عليها كل طرف للطرف الآخر، والتعويض عن الخسائر التي لحقت بالقوات الإيرانية.

6– تقديم جميع المساعدات المطلوبة لرعايا الدولة الإيرانية الذين يرغبون في زيارة العتبات المقدسة في العراق، وفي سائر أرجاء الإمبراطورية العثمانية، عند اجتياز مناطق الحدود العثمانية والكف عن مضايقتهم.

ولكن نادر خان رفض تلك المعاهدة لأنها لا تحقق جميع مطالب إيران الوطنية، فثار على الشاه وزحف واستولى على العاصمة أصفهان، ثم خلع الشاه طهماسب ونصّب بدلاً منه ابن الشاه الرضيع ونصّب نفسه وصياً على العرش. وبذلك أصبح هو الحاكم الحقيقي في إيران. كتب نادر علي خان إلى السلطان العثماني محمود الأول، ليخبره بأنه يرفض معاهدة سنة 1732م، ويطالبه بإعادة جميع الولايات الإيرانية الأخرى فوراً وهدده بالحرب، ثم أرسل إلى أحمد باشا كتاباً فيه الكثير من التهديد والوعيد، وطالبه بإخلاء سبيل جميع الأسرى الإيرانيين.

ذعر أحمد باشا من تلك الأخبار، وكتب تقارير عديدة بعث بها إلى حكومة السلطان باسطنبول شرح فيها أوضاع الحكومة بالعراق وضعف استعداداتها العسكرية، وحاجتها الملحة للمزيد من الرجال والمعدات والأموال. ومما جاء في تقاريره:

...ويصح أن نقول، ليس لدينا جيش يعتمد عليه. اتفقت كلمتنا أن نتخذ الحصار ببغداد ... عرضنا مراراً أن ليس بالإمكان إرسال الخزينة، وإن التجهيزات من بغداد غير متيسرة وليس في المقدور الدوام على الحصار مدة طويلة ... وفي هذه الحالة نأمل من ولي النعم (أي السلطان) أن يلحظنا ولا يهمل شأننا، ونحن في أشد الحاجة إلى ثلاثة عشر ألفاً من الجيوش المدربة من الفرسان، وإلى أثنى عشر ألفاً من المشاة المختارين لمساعدتنا، وإلى ألف كيس من النقود، مع ذخائر وافرة من ديار بكر وماردين، بأن تكون هذه المساعدات من طريق البر على الإبل وأن لا تضيع الفرصة ... لو تمكن العدو من فرجة من جانبنا فلا يبقى مجال لسد الثغرة في كل الأناضول، بل تبقى الحدود مفتوحة أمامه – لا سمح الله – فلا يعوقه أمر

آخر، فاختلال الأمر عندنا يسبب محاذير كثيرة من شأنها أن تخل بالوضع كله، ويولد مكاره ليست في الحسبان ...[1]

لابد لنا أن نلاحظ كيف أن أحمد باشا رسم بذكاء في تقاريره إلى حكومة السلطان صورة تعمد أن تكون قاتمة، فيها كثير من الإنذار، ليضع المسؤولين في اسطنبول أمام مسؤولياتهم، فهو يقول لهم إن الأخطار في الحقيقة تحدق بكم في اسطنبول، لأن بغداد كانت تعتبر من وجهة نظر الإستراتيجية العسكرية العثمانية خط الدفاع الأول، وسيكون سقوطها كارثة تفتح الطريق أمام جيوش نادر خان للتوغل في الأناضول.

حشد نادر علي خان قواته في همدان ومنها زحف على كرمانشاه واستولى عليها، ثم استولى على زهاو وعبر الحدود باتجاه بغداد. ولكي يقطع خطوط الإمدادات أرسل قوة للسيطرة على كركوك والموصل. فاستولت تلك القوة على القرى والأرياف وقامت بأعمال تخريب واسعة ولكنها لم تتمكن من الاستيلاء على قلعة كركوك ولا على الموصل.

محنة سكان بغداد

بعد أن أحكمت القوات الإيرانية الحصار على بغداد وقطعت عنها سبل التموين بات الناس لا يجدون ما يقتاتون عليه. وبينما كانت الإمدادات تتوارد على الإيرانيين دون انقطاع، أصبحت الجيوش العثمانية في موقف حرج لنقص العتاد والأرزاق. أما سكان بغداد فقد أودت بهم المجاعة حتى اضطروا على أكل الكلاب والقطط، وانتشرت في محلاتهم الأوبئة التي أخذت تحصد النفوس بصورة هائلة.

وصول الباشا الأعرج

في أوائل حزيران وصل الموصل جيش عثماني كبير بقيادة شخصية عثمانية من طراز فريد يدعى طوبال عثمان باشا.[2] ولد عثمان باشا باليونان وتربى وتعلم في مدرسة السراي في اسطنبول، ولما كان يتمتع به من ذكاء وشجاعة وأخلاق حميدة، نال أعلى المناصب. كان قائداً عاماً باليونان ثم أصبح والي

---

(1) عباس العزاوي . تاريخ العراق بين احتلالين، ج5 ص233-ص234

(2) كان عثمان باشا قد أصيب في إحدى الحروب إصابات بالغة تركت في إحدى رجليه عاهة دائمة كان يعرج منها ولذلك لقب "طوبال" وهي كلمة تركية تعني الأعرج

الروم أيلي[1]، ثم تسلم منصب الصدارة، ولكنه تقاعد ة في أوائل عام 1732م. ولذلك قررت الدولة أن تعهد إليه بمهمة رفع الحصار عن بغداد ومقاتلة جيوش نادر خان وطردها من العراق، ولذا أعيد للخدمة وتم تعيينه "سر عسكر" في آسيا، وأعطيت له جميع الصلاحيات لحشد إمكانيات الإمبراطورية العثمانية في الشرق لإنجاز تلك المهمة.

الحرب وهزيمة نادر خان

زحف عثمان باشا من الموصل نحو كركوك. ثم عبر الزابين الأعلى والأسفل متجهاً نحو بغداد. أما نادر علي خان فبعد أن علم بقدوم تلك القوات العثمانية الكبيرة حاول مفاجأتها والقضاء عليها قبل اقترابها من بغداد.

انسحب نادر علي ليلاً من بغداد، بعد أن ترك حوالي ثمانية آلاف مقاتل لإدامة الحصار على بغداد وتوجه على رأس جيشه نحو كركوك، ولما اقترب من مصب نهر العظيم كمن نادر خان للقوات العثمانية الزاحفة.

كان قوام جيش نادر علي يبلغ نحو خمسين ألف مقاتل، بينما كانت أعداد الجيوش العثمانية الزاحفة تبلغ نحو المائة ألف. وفي صبيحة التاسع عشر من تموز التحمت القوات الإيرانية بالجيش العثماني واشتعلت بينهما نيران حرب ضروس. قامت القوات الإيرانية الرئيسية بهجوم صاعق بقيادة نادر علي خان ارتدت أمامه فرق الفرسان العثمانية وانكسرت مقدمة القوات العثمانية، واندحر كذلك الجناحان حتى وصلت فلولهم كركوك.

بعد أن تمكنت القوات الإيرانية من إحداث فجوة في الجبهة العثمانية من جهة نهر دجلة تأزم الوضع العسكري إلى حد أن المشاورين العسكريين أشاروا على طوبال عثمان باشا بالتراجع، ولكنه رفض ذلك وبادر إلى دعوة فرق الاحتياط البالغة عشرين ألف مقاتل وزج بها في المعركة، وقد تمكنت تلك الفرق من سد الثغرة. أما القوات الأساسية من الانكشارية ونخب الفرق المدربة، فقد صمدت في القلب وكان رجالها يقاتلون كالبنيان المرصوص. مرت فترة عصيبة من القتال الشرس، ثم أخذت هجمات الإيرانيين ترتد بعد أن تصاعدت خسائرهم. في تلك الأثناء تمكنت القوات العثمانية من استعادة الأرض والمدافع التي سبق أن استولى عليها الإيرانيون.

([1]) الروم ايلي او الرومللي رتب تخول الحائز عليها حق قيادة الجيوش. أُخذت التسمية من ولاية الرومللي على الجانب الأوربي من الإمبراطورية العثمانية. وتشمل أكثر بلاد الصرب ورومانيا وبلغاريا واليونان.

انحسر المد الإيراني وأخذت قوات الانكشارية تتقدم من القلب، وكان القتال شرساً ومريراً فقد نادر علي خان أثناءه حامل لوائه، ولم يتمكن الإيرانيون من الصمود أكثر، وبعد قتال دام طيلة النهار أخذت قوات نادر علي خان بالتقهقر تلاحقها القوات العثمانية.

انتهت المعركة باندحار كامل لقوات نادر علي خان الذي انسحب على عجل وعبر مع فلول جيشه الحدود إلى داخل إيران، بعد أن ترك في ساحة المعركة أكثر من ثلاثين ألف قتيل وكذلك جميع مدافعه ومعدات جيشه. بعد ذلك الانتصار الساحق، سرح القائد العثماني جيوشه الغير نظامية.

عودة نادر خان ومقتل الباشا الأعرج

كان نادر علي خان قد تراجع بسرعة وعبر الحدود واستقر في همدان. ومن هناك كاتب جميع الولايات الإيرانية طالباً إمداده بقوات جديدة. فانهالت عليه النجدات من كل صوب ومكان، وبسرعة مذهلة لم تتجاوز عدة أسابيع تمكن من بناء جيش جبار فاق في أعداده وأسلحته جيشه السابق، ومن ثم عاود الزحف نحو العراق. ولكنه في هذه المرة لم يتوجه نحو بغداد بل سار بجيشه نحو كركوك ليقابل جيش طوبال عثمان باشا.

حينما وصلت أنباء عودة نادر علي خان إلى العراق عم الفزع والرعب ببغداد، وفي هذه المرة أسرع أحمد باشا بإرسال عائلته إلى البصرة، ثم باشر بالاستعداد لحصار جديد، وبالنظر لسوء الأحوال في بغداد وهبوط المعنويات، سمح أحمد باشا لمن يرغب من السكان بمغادرة المدينة.

أما طوبال عثمان باشا فحينما علم بزحف جيش نادر علي خان نحوه، أسرع بجمع ما تبقى من قواته وما توفر من القوات المحلية لأنه يئس من وصول أي مدد من اسطنبول، ثم قام بإعداد تلك القوات للمعركة المقبلة. وللتعرف على قوة الجيش المهاجم أرسل قوة قوامها ستة آلاف رجل إلى الحدود لمشاغلة القوات الزاحفة، ولكن القوات الإيرانية تمكنت من سحق تلك القوة التي سرعان ما انهارت وعادت فلولها المهزومة إلى كركوك، وبعد مناوشات متفرقة التقى الجيشان في منطقة سهل ليلان جنوب كركوك.

في السادس والعشرين من تشرين أول (أكتوبر) اشتعلت بين الطرفين نيران حرب طاحنة كان تفوق الجيش الإيراني فيها كبيراً. ولذا لم يكن بوسع طوبال عثمان باشا أن يعمل الكثير، ولم تسعفه شجاعته ولا مهارته العسكرية، وبعد معركة سريعة تمكن نادر علي خان من تمزيق الجيش العثماني مما اضطر طوبال عثمان باشا إلى ترك المحفة التي كان يُحمل عادةً عليها، وامتطى جواده محاولاً لمّ شمل قواته المنهارة، ولكن محاولاته اليائسة لم تنفعه كثيراً، وظل ذلك القائد الشجاع يقاتل ببسالة إلى أن خر صريعاً في ساحة المعركة، بينما كانت القوات العثمانية تتلاشى.

حصار بغداد الثاني

تأزم الوضع ببغداد إلى حد أن أحمد باشا رفض السماح لفلول جيش طوبال عثمان باشا من الدخول إلى بغداد، لقلة الموارد وعدم الحاجة إليهم. في تلك الأثناء تقدم جيش نادر علي خان نحو بغداد، وفي قره تبه خرجت قوات إيرانية خاصة وعبرت دجلة للاستيلاء على مناطق بغداد الغربية، ثم سارت فرق منها نحو مدن الفرات الأوسط، أما القوة الرئيسية فقد استمرت في زحفها نحو بغداد عن طريق الخالص، وبعد وصولها ضربت الحصار مرة ثانية على المدينة.

في هذه المرة كان وقع الحصار على النفوس أشد وأدهى، فقد انهارت معنويات الجميع، ولم يبق أمل بالنجاة، إلاّ بمعجزة !..

في تلك الأثناء وصلت إلى نادر علي خان أنباء عن حدوث ثورات داخلية في إيران ضده لصالح العائلة المالكة الصفوية، فكان لابد له من العودة للقضاء عليها، وبسبب تلك التطورات قبل نادر علي خان إبرام معاهدة صلح مع أحمد باشا، وهكذا حدثت المعجزة وانتعشت آمال سكان بغداد.

معاهدة الصلح وعزل أحمد باشا

في كانون أول سنة 1733م أُبرمت معاهدة الصلح بين أحمد باشا ونادر علي خان الذي اشترط أن يكون من بين بنودها استرجاع المدافع الإيرانية التي أخذها أحمد باشا من همدان، واتفق فيها الطرفان على عودة الحدود الإيرانية–العثمانية إلى ما كانت عليه سابقاً. أي قبل اجتياح قوات حسن باشا لحدود إيران في سنة 1722م. بعد أن تم توقيع ذلك الاتفاق زار نادر علي خان العتبات المقدسة بالنجف وكربلاء، ثم قفل راجعاً إلى إيران لمعالجة مشاكله هناك. ولكن حكومة اسطنبول رفضت تلك المعاهدة وأقدمت على عزل أحمد باشا.

في تلك الأثناء تمكن نادر علي خان من القضاء على الثورات الداخلية في إيران، وبعد أن أحكم سيطرته بالداخل، عاد في سنة 1735م لمواجهة العثمانيين مرة أخرى، واشتبك بقواتهم في معارك عدة، تمكن فيها من انتزاع عدد من القلاع التي كانت لا تزال تحت سيطرتهم، ثم حاصر تفليس ويريفان وكنجة، ومن ثم توجه للتصدي للقوات العثمانية الرئيسية التي كانت بقيادة عبد الله باشا الكوبريلي.

التقى الجيشان في منطقة صحراء بغاوند بالقرب من قارص، حيث دارت بين الطرفين معارك طاحنة انتهت بتدمير الجيش العثماني ومقتل قائده عبد الله باشا الكوبريلي والاستيلاء على جميع أسلحته ومعداته. بعد تلك المعركة الكبيرة استولى نادر علي خان على بلاد الكرج وعلى داغستان واستسلمت له كذلك جميع

المدن المحاصرة، ثم توجه بعد ذلك إلى ولاية قزوين وهاجم هناك جيوش روسيا القيصرية حليفة العثمانيين وتمكن من دحرها وانتزاع ولاية قزوين من يدها.

بعد أن حقق نادر علي خان كل تلك الانتصارات، أعلن إلغاء العرش الصفوي ونصّب نفسه في الحادي عشر من آذار سنة 1736م ملكاً على إيران، وبذلك أصبح يدعى نادر شاه.

أحمد باشا يستعيد وزارة بغداد

بعد تدمير الجيوش العثمانية بالشرق والتي كان صقور الحرب يعقدون عليها آمالاً كبيرة، أدرك رجال الدولة العثمانية خطأهم في رفض معاهدة أحمد باشا لسنة 1733م، ولتلافي المزيد من الهزائم اضطروا إلى تغيير سياستهم تجاه إيران، ولذا استُدعي أحمد باشا من أورفا وجرى تعينه مرة أخرى لولاية بغداد، ثم صدر الأمر بتعيينه قائداً أعلى "سر عسكر" برتبة ممتازة في آسيا، ومُنح تخويلاً كاملاً بإجراء مفاوضات الصلح مع نادر شاه. بعد أن عاد أحمد باشا إلى بغداد، سحق الانكشارية وبدد شملهم، وسلط على الولاية مرة أخرى مماليكه الكرج، فكانت تلك المرحلة الأولى لحكمه الجديد.

حروب أحمد باشا ضد العشائر العراقية

بعد عودته إلى بغداد وجد أحمد باشا أن خزينة الولاية تشكو من قلة الموارد بسبب امتناع القبائل العراقية عن دفع الرسوم والضرائب التي كانت تفرضها عليهم الحكومة، ولمواجهة تلك المشكلة قرر أحمد باشا أن يتحرك بسرعة ضد العشائر العراقية لكسر شوكتها، ولنهب أموالها ومنتجاتها الزراعية التي كانت حكومة بغداد بأشد الحاجة إليها.

كانت حملته الأولى ضد ببني لام. ثم هاجم عشائر بلباس الكوردية بحجة أن رجال تلك العشيرة يقطعون الطرق وينهبون القوافل. وفي سنة 1738م شن أحمد باشا حملة عسكرية ضد عدد من العشائر الزراعية والرعوية منها عشائر ربيعة. وكان في الغالب يوقت تلك الحملات في مواسم معينة تتناسب مع مواسم الحصاد وجمع الغلال، لأن الهدف الحقيقي من تلك الحملات العسكرية كان أعمال السلب والنهب، واستحواذ الحكومة على الأموال والغلال والثروة الحيوانية لتغطية مصروفاتها العسكرية التي تصاعدت في تلك الحقب التاريخية.

مقتل الشيخ سعدون أمير المنتفك

في سنة 1738م جهز أحمد باشا حملة عسكرية كبيرة تستهدف القضاء على سلطة المنتفك، حشد في تلك الحملة قوات إضافية كبيرة من الكورد بقيادة عثمان باشا الكوردي وزحف نحو ديار المنتفك. ولكن رجال المنتفك تصدوا لجيش أحمد باشا وأنزلوا به هزيمة منكرة، مما اضطر أحمد باشا أن ينسحب نحو بغداد.

بعد العودة إلى بغداد جهز أحمد باشا حملة جديدة بقيادة سليمان باشا وبعث بها إلى البصرة لمواصلة الحرب ضد قبائل المنتفك. قام سليمان باشا بشن هجمات متتالية واشتبك مع قوات المنتفك بسلسلة من المعارك. وفي إحدى المعارك تمكن عساكر سليمان باشا من الاقتراب من الشيخ سعدون الذي كان يساهم بنفسه في تلك الحرب ونجحوا في قتله. بعد مقتل الشيخ سعدون قطع سليمان باشا رأسه وأرسله إلى بغداد. أنعم أحمد باشا بالخلع والعطايا على البشير الذي حمل إليه رأس الشيخ سعدون، ثم أمر بسلخ جلد الرأس وحشاه وأرسله في صندوق إلى اسطنبول ليبشر السلطان والمقامات العليا بمصرع زعيم المنتفك الذي تحدى وجود الدولة العثمانية في بلاد الرافدين. هزت حادثة قتل الشيخ سعدون والتمثيل به كافة طبقات المجتمع العراقي للمكانة التي كان يتمتع بها ذلك الزعيم، فهو رئيس المنتفك وابن محمد آل مانع آل شبيب، ونحن نعلم أن آل شبيب سادة أشراف ينتسبون إلى الإمام الحسن بن على بن أبي طالب وقد ورد جدهم العراق من مكة المكرمة، وحضوا برئاسة المنتفك ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ عرب العراق.

قال عنهم إبراهيم فصيح الحيدري:

إنهم من أجلّ العرب في نواحي بغداد ... وشيوخهم من أهل السنة والجماعة، على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وقبائلهم رافضة (أي شيعة) ...[1]

نادر شاه وعودة الصراعات الإيرانية العثمانية

بعد إبرام معاهدة سنة 1736م بدأ نادر شاه يستعد لفتوحات جديدة باتجاه الشرق، وفي سنة 1738م كتب من قندهار إلى السلطان محمود الأول يطالبه بأرمينيا وديار بكر، وطلب من السلطان كذلك أن يلغي حلفه مع مملكة المغول في الهند، وعدم ترميم سور بغداد، ولكن السلطان أهمل تلك المطالب ولم يجب على تلك الرسائل.

---

(1) إبراهيم فصيح الحيدري البغدادي. عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، ص109

في سنة 1740م توغل نادر شاه في شبه القارة الهندية، وبعد حروب طاحنة استولى على أغنى أقاليمها، وأهمها جهان آباد التي غنم منها أموالاً طائلة، وفرض على ملكها الشاه محمد دفع مبالغ سنوية كبيرة. كذلك استولى على تركستان وبلخ وبخارى. وبسط هيمنته على بلاد الأفغان.

بعد أن أكمل نادر شاه فتوحاته في الشرق، أعلن نفسه "شاهنشاه" أي ملك الملوك، وبعد ذلك جاءت سفارة سنة 1741م التي بعث معها نادر شاه هدايا وأموال إلى العتبات المقدسة في العراق، وهدايا خاصة لأحمد باشا ولحكومة السلطان. وقد كرر مبعوثوه الذين جاءوا بتلك الهدايا مطالبته بالاعتراف الرسمي بالمذهب الجعفري الذي نادى به بمناسبة تتويجه، ولكن الدولة العثمانية رفضت تلبية ذلك الطلب، وأعلنت مرة أخرى مروق الشيعة باعتبارهم مرتدين، وهكذا عادت الاستعدادات لحروب جديدة، كما بدأت جولات جديدة من المفاوضات بين الدولتين. كان لتلك الأخبار وقع سيئ ببغداد التي أنهكتها الحروب، وكان أحمد باشا أعرف من غيره بسوء الأوضاع الداخلية بالعراق، الذي سيكون الساحة الرئيسية لأية حرب جديدة وإن مثل تلك الحرب ستفقده استقلاليته، وتشل قدراته على السيطرة على العراق، وتزيد من اعتماده على حكومة السلطان. في خضم تلك التطورات، باشر أحمد باشا بتعزيز دفاعاته، أثناء تلك الاستعدادات للحرب، عبرت قوات نادر شاه الحدود من طريق مندلي، وفي تلك الأثناء وصل بغداد وفد إيراني يحمل إلى أحمد باشا رسالة مهمة من نادر شاه يقول له فيها ما معناه:

"... أنا لست راغباً في إيذائك ولا في إنزال الضرر ببغداد، إنما أنا أنازع السلطان العثماني ... لو سلمت لي بغداد، سوف لا تندم على ذلك ...!!" ، ثم طلب منه أن يمنحه مزارع بغداد.

كانت استعدادات نادر شاه كبيرة، إذ قُدرت جيوشه بثلاثمائة ألف مقاتل. توجه جيش منها لحصار البصرة، وجيش آخر زحف من مندلي واستولى على مناطق بغداد الزراعية وأريافها، ولكنه لم يحاول اقتحام أسوار المدينة. وبدأت فترة لا سلم ولا حرب، تخللتها مفاوضات مضنية جرت بين الطرفين. في غالب الضن فإن نادر شاه كان يلمح لأحمد باشا بتسليمه العراق، ويعرض عليه الاستقلال بالعراق بشرط أن يرتبط بالدولة الإيرانية بدلاً من الدولة العثمانية. ولكن يبدو أن أحمد باشا لم يكن واثقاً من قوة إيران العسكرية، وقدرتها على المدى البعيد في الدفاع عنه في حالة تعرضه لهجوم عثماني. ولذا ظل أحمد باشا يماطل وفي نفس الوقت يكتب للسلطان بما يحدث، على أمل أن تقوم الدولة بعمل ما لإنقاذه، وفي تلك الأثناء كان يواصل إرسال من يثق بهم إلى نادر شاه لمواصلة البحث عن حل يرضي الطرفين. في نهاية المطاف جاءت إلى نادر شاه أجوبة من أحمد باشا تقول ما معناه:

... لا يمكن لبغداد أن تسقط قبل الموصل ... فلو سقطت الموصل بيدك سوف تستسلم لك بغداد بدون حرب ...".

دلّت رسائل أحمد باشا إلى نادر شاه، وتلميحاته له بالذهاب إلى الموصل على براعته في المناورة السياسية، إذ لو نجح في إقناع نادر شاه بمهاجمة الموصل، فهو سينقذ بغداد من حصار قاتل، وينقل الحرب إلى أبواب هضبة الأناضول ويضع حكومة السلطان أمام مسؤوليتها لمواجهة جحافل نادر شاه. وفي الغالب فأن ممثلين أحمد باشا في مفاوضاتهم السرية مع نادر شاه أقنعوه بهذا بالمنطق العسكري والسياسي وربما تعهدوا له بتسليم بغداد والاعتراف بسلطته بعد استيلائه على الموصل.

زحفت القوات الإيرانية نحو كركوك وفي الحال هرب منها كبار الضباط العثمانيين بقواتهم وتوجهوا إلى الموصل. بعد الاستيلاء على كركوك استولت القوات الإيرانية على أربيل ومنها بدأت زحفها نحو الموصل.

نادر شاه وحصار الموصل

بعد سقوط الدولة العباسية وخاصة بعد انتهاء سلطة الأتابكة بالموصل أخذت الرقعة السياسية لسلطة الموصل تتقلص، إذ برزت منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر قوى قبلية وريفية استقلت في مناطقها عن تلك السلطة. وكانت القبائل الكوردية أهم تلك القوى التي شكلت إمارات ودويلات إقطاعية مستقلة أو شبه مستقلة، وفي تلك الحقب التاريخية اعترف العثمانيون بذلك الواقع السياسي الإقطاعي الذي أدى بدوره إلى انكماش الحدود الشرقية لولاية الموصل، وبات ذلك جلياً بعد أن ثبتت السلطات العثمانية سلطة إقليم شهرزور الذي أصبح ولاية بذاتها عاصمتها كركوك.

الموصل والإقطاع العسكري العثماني

كان من أهم الأسر الإقطاعية العثمانية التي برزت وهيمنت على مقدرات الموصل أسرتان، هما آل قاسم العمري الذي استقدمته الدولة من مكة، وآل الجليلي الذين نزح جدهم عبد الجليل إلى الموصل من ديار بكر.

لقد شاهدت بداية القرن السابع عشر ضعف سلطة اسطنبول وأحياناً انحسارها عن العديد من الأقاليم والولايات العثمانية، وفي ظل تلك الأوضاع التاريخية التي تميزت بضعف الإدارة العثمانية، تمكنت الأسر الإقطاعية بالموصل من تعزيز سلطتها السياسية والعسكرية بالولاية، وعلى ما يبدو فأن حكومة السلطان كانت بحاجة إلى تلك القوى الإقطاعية العسكرية الصاعدة، للاستفادة منها في حروبها ضد القبائل العراقية النهرية التي أقامت كيانات شبه مستقلة في وسط وجنوب العراق. وكان العثمانيون قد قسموا الإقطاع العسكري بالموصل كما يلي:

وعلى هذا الأساس أصبحت وحدات الموصل الإقطاعية كما يلي:

باعشيقة: الصنف "تيمار" / برطلّي: الصنف "خاص" / كرمليس: الصنف "خاص" / القوش وقره قوش: الصنف "خاص" / أسكي موصل: الصنف "تيمار" / باعذرا: الصنف "زعامت" / شاه: الصنف

"تيمار" / محلبية: الصنف "زعامت" / باطنيا: الصنف "خاص" / حصارة: الصنف "خاص" / يامرجة: الصنف "خاص" / الموصل: الصنف "خاص"

من المعروف أن غالبية العاملين في تلك الإقطاعيات العسكرية كانوا من غير المسلمين، وتبرز تلك الحقيقة في أغلب تلك المناطق مثل باعشيقة والقوش وقرة قوش وكرمليس وبرطلي وتلكيف وغيرها، ولكن حكومة السلطان منحت تلك الإقطاعيات إلى الأسر العثمانية بالموصل، ونتيجة لذلك ظهرت في القرن السابع عشر أسر إقطاعية عثمانية بالموصل، كآل الجليلي و آل العمري، كانت تجمع بين الثراء المالي والنفوذ السياسي والعسكري.

ومن الجدير بالملاحظة أن الفلاحين المسيحيين لم يكن مسموح لهم بحمل السلاح والانخراط في فرق الفرسان "السباه" وكبديل لذلك، كونت الأسر الإقطاعية فرق عسكرية خاصة بها داخل مدينة الموصل، وهذا منحها نفوذاً عسكرياً وسياسياً كبيراً، ولكن ذلك جرّها إلى صراعات دموية أعطت تاريخ الموصل طابعاً خاصاً لازالت أبعاده بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث.

كانت إمارة الجليلين في الموصل حديثة العهد، فالوالي الحاج حسين باشا الجليلي كان يمثل الجيل الثاني من عائلة الجليلين إذ حاز على المنصب بعد والده إسماعيل باشا الجليلي الذي تولى سنة 1727م. وقد بذل ذلك الوالي جهوداً كبيرة لتعزيز دفاعات مدينة الموصل، التي كانت قد اكتظت بالناس بما فيهم الجنود والضباط العثمانيين الذين هربوا من كركوك ومن المناطق الأخرى.

في أواخر أيلول سنة 1743م استولت قوات نادر شاه على الجانب الشرقي لنهر دجلة. وهناك تعرض أحد أجنحة الجيش الإيراني إلى هجوم مفاجئ من قبل فرقة خيالة عثمانية عبرت من الجانب الغربي لنهر دجلة لغرض تقدير قوة القوات المهاجمة، وسرعان ما تصدى لها الإيرانيون وصبوا عليها نيرانهم الحامية فشتتوها وكادوا أن يقضوا على جميع أفرادها، غير أن قائدها أبدى شجاعة فائقة وتمكن من جمع فلول قواته والعبور بها مرة أخرى إلى الجانب الغربي من النهر، وبعد أن دخلت بقايا تلك القوة سور الموصل أغلقت الأبواب وبدأ حصار المدينة.

كانت القوات الإيرانية كبيرة تجاوزت أعدادها المائة وسبعين ألف مقاتل. وقد تمكنت تلك القوات من عبور نهر دجلة إلى الجانب الغربي بعد أن نصبت عليه جسرين، وانتشرت حول مدينة الموصل وأحكمت الحصار حولها، وفي أوائل تشرين الأول 1743م بدأ أكثر من مائتي مدفع إيراني صب حممها على المدينة المحاصرة، وبسبب ذلك القصف المدفعي الذي تواصل أثناء النهار والليل، سقط العديد من الضحايا، غير أن ذلك القصف المدفعي لم يثّبط عزيمة المدافعين، وفي تلك الأثناء كان الحاج حسين الجليلي وولديه مراد وأمين يتجولون بين المواضع الدفاعية لشد عزيمة المقاتلين.

لقد طال الحصار واستمر الصمود مما أثار غضب نادر شاه الذي أمر قواته بتكثيف الجهود والتعجيل بالاستيلاء على المدينة، وبعد قصف مكثف تمكن الإيرانيون من إحداث فجوة في السور كادوا أن ينفذوا منها إلى الداخل. إلا أن بسالة المدافعين أنقذت الموصل من ذلك الوضع الخطير، فتمكنوا من سد تلك الثغرة بسرعة وبإحكام بالرغم من تكبدهم خسائر فادحة.

بعد فترة قام المشاة الإيرانيون بحفر أنفاق عميقة تحت السور وفجّروا فيها ألغاماً شديدة، مما أدى إلى تصدع السور وحدوث فجوة فيه اندفع عبرها المشاة الإيرانيون، وكاد أن يكون ذلك الاختراق بداية كارثة على المدافعين عن المدنية، غير أن عزيمة المدافعين و بسالتهم ودفاعهم المستميت قلب موازين المعركة مرة أخرى، وبعد قتال مرير تمكن المدافعون من رد المهاجمين على أعقابهم، وسد تلك الثغرة التي هددت مصير المدينة. واستمر الصمود كما استمر الحصار.

عقد الصلح مع نادر شاه

أمام تلك المقاومة الباسلة، يئس نادر شاه من الاستيلاء على الموصل، وقدم عرضاً لرفع الحصار مقابل توقيع عقد للصلح، وهكذا تم إبرام الصلح وتبادل الهدايا، وكان من بين هدايا الحاج حسين الجليلي لنادر شاه مجموعة من الخيول العربية الأصيلة. بعد توقيع الصلح وتبادل الهدايا بين الطرفين، رفع نادر شاه الحصار عن الموصل فتنفس أهلها الصعداء.

انسحبت قوات نادر شاه إلى كركوك ومنها توجهت نحو بغداد، فأنتشر الفزع ثانية بين السكان، وارتفعت الأسعار في الأسواق مرة أخرى كما ارتفعت حمى الاستعدادات لحصار آخر.

بعد أن وصل نادر شاه إلى الأعظمية، بعث إلى أحمد باشا رسولاً يحمل عرضاً بالصلح مع الدولة العثمانية. رحب أحمد باشا بذلك العرض، وسارع بإرسال وفد مفاوض عالي المستوى قابل نادر شاه وأجرى معه مفاوضات تم بموجبها الاتفاق على عقد صلح بين الدولتين، وبعد أن عرض أحمد باشا بنود ذلك الصلح على الجهات العليا في اسطنبول ونال موافقتها أكمل مراسم التوقيع على معاهدة جديدة وافق نادر شاه بموجبها الانسحاب من الأراضي العراقية.

مؤتمر النجف

1156هـ - 1743م

بعد إبرام معاهدة الصلح مع أحمد باشا، توجه نادر شاه لزيارة النجف الأشرف ومشاهدة مرقد الإمام علي بن أبي طالب في هيأته الجديدة، إذ كان نادر شاه قد أمر في العام السابق بقلع القاشاني الذي كان يكسو قبة المرقد والمنائر والإيوان الكبير، واستبداله بصفائح الذهب. وكان نادر شاه قد جلب معه كميات كبيرة من الذهب وصرف أموالاً طائلة لإنجاز ذلك المشروع.

وقد جاءت تلك الزيارة بعد إنجاز مشروع إكساء المنائر والإيوان الكبير بالذهب، وقد قدم نادر شاه في تلك المناسبة إلى خزانة المرقد العلوي هدايا ثمينة من القناديل والسيوف الذهبية والمجوهرات التي لا تقدر بثمن.

وصل نادر شاه النجف يوم الأحد الحادي والعشرين من شوال سنة 1156هـ (العاشر من كانون الأول سنة 1743م)، وكان قد اصطحب معه جمعاً من كبار علماء إيران الشيعة وعلى رأسهم الشيخ علي أكبر "الملا باشي" ومعه مجموعة كبيرة من علماء أهل السنة من الأفغان والأزبك والتركستان وأقاليم ما وراء النهر، وبعد أداء مراسيم الزيارة اجتمع نادر شاه بعدد من علماء النجف وطرح عليهم مشروع توحيد المذاهب الإسلامية، وطلب منهم عقد مؤتمر في رواق الحرم العلوي برعايته، لتحقيق ذلك الهدف.

كان نادر شاه طلب من أحمد باشا إرسال وفد من علماء السنة ببغداد للمشاركة في ذلك المؤتمر، وقد اختار أحمد باشا الشيخ عبد الله السويدي وأمره بالسفر إلى النجف للمشاركة في ذلك المؤتمر كممثل عنه وعن علماء أهل السنّة.

وقد ذكر الشيخ السويدي بشيء من التفصيل طبيعة مساهمته في حيثيات ذلك المؤتمر ومجريات جلساته والنتائج التي خلص أليها، فقال في كتابه "النفحة المسكية والرحلة المكية"(1) : إنه بينما كنت جالساً حضر مندوب الباشا وبلّغني أن أحضر إليه. وبعد أداء صلاة المغرب ذهبت إلى دار الحكومة فاستقبلني

(1) رسول الكركوكلي– دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ص51

أحمد آغا وقال لي إن الوزير طلبك ليرسلك إلى الشاه، ولما استوضحته الأسباب قال لي إنه يريد أحد علماء السنّة لمناظرة علماء الشيعة، فإن غُلبت اتبع الكل المذهب الخامس، وإلا اتبع هم أهل السنّة والجماعة.

وعند سماعي لهذا الكلام، قلت يا أحمد آغا إنك تعلم أن الشيعة أهل رأي وعقيدة، فكيف يأخذون بكلامي ويسلّمون برأيي، لاسيما وإنهم في عدد وعدّة وإن الشاه يناصرهم، فكيف يسعني مجادلتهم، ولهذا أرجو أن تتوسط لدى الوزير بأن يعفيني من هذه المحنة، وأن يختار أحد مفتي الحنفية أو الشافعية لهذه المهمّة، فأجاب بأن سيدنا الباشا، قد اختارك شخصياً وليس هنالك سوى الامتثال.

مقررات مؤتمر النجف

هناك تفاصيل عن مؤتمر النجف وقراراته، لا مجال لسردها في هذا الموجز، ولكن يمكن للمهتمين الإطلاع على تلك التفاصيل مراجعة الجزء الثالث من هذا الكتاب.

بعد عودة نادر شاه إلى إيران، أعلنت الدولة العثمانية رفضها اتفاقية الصلح التي أبرمها نادر شاه مع أحمد باشا، وتجاهلت مقررات مؤتمر النجف، وهكذا دارت عجلة الاستعدادات للحرب مرة أخرى. أما أحمد باشا فقد أصبح بإمكانه التفرغ للتنكيل بالعشائر العراقية، بحجة أنها لم تسانده أثناء حصار بغداد، فمن المعروف أن العشائر العراقية اتخذت موقفاً مستقلاً ونأت بنفسها عن الحروب العثمانية الصفوية.

كان أحمد باشا قد نكل بزعامة المنتفك وقتل الشيخ سعدون بن محمد المانع في سنة 1738م، أما في هذه المرة فقد استهدف الشيخ غصيبة رئيس عشائر زبيد ولكن الشيخ غصيبة كان صعب المنال يحميه رجال أشداء، وكان كثير التنقل في أنحاء البادية الواسعة، ولذا فكر أحمد باشا باستدراجه إلى مكان يسهل فيه القبض عليه.

في سنة 1744م كتب أحمد باشا إلى الشيخ غصيبة كتاباً لطيفاً فيه الكثير من التودد، وطلب منه المساعدة لمقاتلة عشائر شمر، وطلب منه أن يسير بفرسانه إلى الحلة، ولكي لا يثير الشكوك، لم يذهب أحمد باشا إلى الحلة بل أرسل جيشاً بقيادة صهره سليمان باشا. وحينما التقى سليمان باشا بالشيخ غصيبة وبقية رؤساء زبيد، قبض عليهم بعد أن جرد فرسان زبيد من سلاحهم، واستولى على خيولهم، ثم قتل الشيخ غصيبة ورؤساء زبيد المصاحبين له وصلبهم على رأس جسر الحلة.

اغتيال نادر شاه

من المعروف أن الأيام الأخيرة لحكم نادر شاه كانت مليئة بالمآسي والويلات، ونتيجة لأعمال القتل والإبادة، فر الكثيرون من الناس خوفاً من بطشه وجور جباته الظالمين، وانتشرت في البلاد حركات التمرد والتآمر ضده، ويقال أن الضغوط الاقتصادية التي فرضتها الحروب أخرجت نادر شاه من حدود الاعتدال إلى حد كبير، ففي إحدى حملاته العسكرية ضد سكان منطقة سيستان، أمر أبن أخيه الذي قاد تلك الحملة أن يجبي من السكان الفقراء مبالغ طائلة من الأموال، ولتأكد القائد استحالة جباية تلك الأموال الطائلة من تلك المنطقة الفقيرة، ولخوفه من عقاب نادر شاه، اضطر هو الأخر أن ينظم إلى صفوف المتآمرين. ولما يئست تلك الجماعات وعجزت عن تحدي نادر شاه عسكرياً، سلكت طريق التآمر للتخلص منه.

اتفق المتآمرون وكان بعض خواص نادر شاه ضالعين معهم، على قتله بعد أن يخلد إلى النوم، وفي الموعد المحدد دخلوا خيمته تحت جنح الظلام وقتلوه، ثم سرقوا ما وجودوه هناك من مجوهرات ونفائس وهربوا مع المسروقات إلى جهة علي قلي خان، وكان ذلك في 21 حزيران 1747م.

في اليوم التالي شاع خبر اغتيال نادر شاه في معسكره وانتشر كزلزال مدمر انهارت على أثره قواته العسكرية وشاعت الفوضى والقتال بينهم و أسرع الجنود إلى خيام نادر شاه ونهبوها، واندلع القتال بين الجنود السنة والشيعة، وفي عنفوان المعارك توحدت القوات السنية الأفغانية والأوزبكية تحت قيادة احمد خان الأبدالي واشتبكت في قتال مرير مع القوات الافشارية الشيعية، وبعد انتهاء المعارك نهبت القوات الأفغانية المعسكر وسارت نحو مدينة نادر آباد قرب قندهار حاملة معها ما نهبته من أموال وأسلحة ومعدات.

وفاة أحمد باشا

بعد أن انتهى أحمد باشا من مشاكل الحروب التي أجج أوارها والده حسن باشا، والتي كان لها آثار اقتصادية واجتماعية مدمرة على العراق وسكانه، فقد توجه أحمد باشا إلى معالجة تداعيات تلك الآثار. إذ بعد أن ألقت الحرب أوزارها وجد أحمد باشا أن خزينته قد أشرفت على الإفلاس وتراكمت عليها الديون، ولسد ذلك العجز قرر أحمد باشا تجهيز حملات عسكرية للإغارة على مناطق البلاد الزراعية ومهاجمة القرى والأرياف للاستحواذ على ما فيها من غلال وحيوانات، وحملها إلى بغداد لإطعام عساكره والعاملين في مؤسسة الحكم ببغداد.

وقد اقتضت الضرورة هذه المرة أن يتحرك ضد الكورد، فقام بإرسال قوة عسكرية كبيرة بقيادة كتخداه وصهره سليمان باشا إلى العمادية، وقد هاجم سليمان باشا منطقة العمادية ونكل بأهلها ونهب ما لديهم من

أموال وغلال بالرغم من أن عشائر البهدينان وحكامهم بالعمادية، كانوا منذ عهد السلطان مراد الرابع يحظون بمنزلة وعلاقات طيبة مع العثمانيين، غير أن أحمد باشا قلب الأمور ووضع شروطاً جديدة لتنظيم علاقة بغداد بإمارة العمادية.

بعد الانتهاء من حملة العمادية، جهز أحمد باشا حملة عسكرية أخرى وخرج على رأسها لمهاجمة مناطق بابان التي كان يحكمها سليم باشا بابان.

اجتاح جيش أحمد باشا مناطق بابان مما اضطر سليم باشا إلى الانسحاب والاحتماء في المناطق الجبلية النائية، وبعد سلسلة من المعارك تمكن جيش أحمد باشا من الاستيلاء على مناطق كبيرة أهمها حصن قمجوقة بعد أن قضى على أكثر المدافعين وأسر من بقي منهم، ثم زحف أحمد باشا إلى سرجق حيث كان يتحصن سليم باشا. أحكم جيش أحمد باشا الحصار على سرجق بعد أن أقام حولها المتاريس، ثم بدأ يشن عليها الهجمات، وقد جرت عدة محاولات لاقتحام ذلك الحصن ولكن سليم باشا والمدافعين الذين معه تمكنوا من صد جميع تلك الهجمات.

في أثناء تلك الحملة، ظهرت بين أفراد جيش أحمد باشا أعراض مرض أخذ يتفشى بسرعة بين العسكر أودى بحياة أعداد كبيرة منهم، وبالنظر لفشل الجيش في الاستيلاء على حصون سليم باشا وبسبب انتشار المرض القاتل بين صفوفه، اضطر أحمد باشا إلى عقد صلح مع سليم باشا بابان والانسحاب نحو بغداد.

بدأ جيش أحمد باشا بالانسحاب وهو بأسوأ حال، ومما زاد في تدهور الموقف أن أعراض المرض أخذت تظهر على أحمد باشا نفسه، مما اضطره إلى الإسراع بالرجوع إلى بغداد، وفي طريق العودة أعلن أحمد باشا وهو في منطقة كوز قلعة، تنصيب سليمان باشا آل خالد باشا حاكماً على بابان، وعثمان باشا على كوى، وقوج باشا على أربل (أربيل).

يبدو أن ذلك الوباء القاتل أنهك قوى أحمد باشا ومنعه من الوصول إلى بغداد، وفي يوم الخميس الرابع عشر من شوال سنة 1160هـ (20 تشرين أول 1747م) وافته المنية في دلي عباس "المنصورية"، وبوفاة أحمد باشا في منتصف القرن الثامن عشر انطوت حقبة دامية أخرى من تاريخ العراق دامت قرابة نصف قرن.

بغداد في قبضة المماليك الكرج

فجرت وفاة أحمد باشا مرة أخرى، الصراع الخفي بين عسكر المماليك الكرج (الكولمند) ببغداد، والحكومة المركزية باسطنبول. فحكومة السلطان محمود الأول كانت تتابع عن كثب تطور الأحداث ببغداد

وتنتظر الفرصة المؤتية لاستعادة سيطرتها المباشرة على العراق، ويبدو أن رجال الحكم في اسطنبول ظنوا بأن غياب أحمد باشا عن الساحة، سيخلف فراغاً سياسياً وعسكرياً يسهل على أنصار حكومة السلطان وعملائها الإجهاز على مؤسسة المماليك الكرج والقضاء عليهم، تمهيداً لعودة بغداد إلى حظيرة حكومة السلطان. زيادةً في إضعاف حكومة بغداد توجهت السياسة العثمانية إلى إعادة تقسيم العراق إدارياً، وذلك بفصل ولاية البصرة عن ولاية بغداد، وربط كل منهما مباشرة باسطنبول.

في السنين الأخيرة من حكم أحمد باشا، كان أمراء المماليك الكرج يشعرون بأنهم الحكام الشرعيون ببغداد، ولا يجوز لأية قوة أخرى أن تنافسهم أو أن تحاول انتزاع ذلك الحق المكتسب منهم.

اسطنبول تتحرك ضد المماليك الكرج

ولكن حكومة السلطان كانت ترى غير ذلك، وبعد وفاة أحمد باشا، باشر رجال الدولة في اسطنبول بتنفيذ مخططاتهم للتخلص من المماليك الكرج، إذ تم تعيين الصدر الأعظم السابق المدعو الحاج أحمد باشا لمنصب والي بغداد الشاغر، كما أعلنوا فصل ولاية البصرة عن بغداد، وتعيين المدعو أحمد باشا "القيصرية لي" لولاية البصرة[1]. في نفس الوقت جرى تعين صهر أحمد باشا سليمان باشا لولاية أطنة بهدف إبعاده عن مسرح الأحداث ببغداد.

ولكن الوالي الجديد فشل في مواجهة مشاكل حكومة بغداد الغارقة بديونها وفي السيطرة على الفتن وحركات التمرد التي أشعل نيرانها الإنكشارية، مطالبين بمستحقاتهم التي انقطعت منذ مدة طويلة.

من أجل دعم موقف الوالي وتهدئة الخواطر، اضطرت حكومة السلطان محمود إلى اتخاذ بعض الإجراءات اللازمة لحل مشكلة الديون، فقامت بجمع بعض الأموال لدفعها إلى إنكشارية بغداد والفئات المرتبطة بهم وذلك عن مستحقاتهم لسنتي 1746م و 1747م. ولكن تلك الأموال لم تكن كافية، فقد سبق لأحمد باشا أن استدان مبالغ كبيرة من المال بلغت أكثر من ألف وثمانمائة كيس[2] صرفها أحمد باشا أثناء حروبه السابقة، يضاف إلى ذلك مبلغ 48134 قرش صُرفت على إقامة الوفد الإيراني والوفد العثماني أثناء

---

(1) هو السفير الأول ورئيس بعثة الصلح إلى نادر شاه والذي كان قد عاد إلى بغداد من إيران مع حاشيته الكبيرة والهدايا التي لم تسلم، وبقي ينتظر ببغداد طيلة تلك المدة.

(2) الكيس خمسمائة قرش أو ثلاثة آلاف محمدية والمحمدية عشر أقجات، والأقجة كانت تعتبر نصف مثقال فضة وقد تغيرت في عهود أخرى.

(تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي ج4. ص139)

وجودهم ببغداد. ولكن المشكلة التي واجهت الجميع هي أن خزينة الدولة كانت خاوية، ولم يكن بوسع اسطنبول دفع أي مبالغ أخرى.

مشكلة الديون والمستحقات

من أجل دعم موقف الوالي الجديد وتهدئة الخواطر، اضطرت حكومة السلطان محمود إلى اتخاذ بعض الإجراءات اللازمة لحل مشكلة الديون، فقامت بجمع بعض الأموال من اسطنبول بلغ مجموعها مائة وخمسين ألف قرش نقداً حملت إلى كتخدا البوابين نعمان بك، وأضيف إلى تلك الأموال مبلغ خمسين ألف قرش من أموال أحمد باشا التي استحوذت عليها الدولة، وجرى دفع تلك المبالغ إلى إنكشارية بغداد والفئات المرتبطة بهم وذلك عن مستحقاتهم لسنتي 1746م و 1747م.

بالرغم من دفع تلك المبالغ بقيت في ذمة الدولة ديون كثيرة، فقد سبق لأحمد باشا أن استدان مبالغ كبيرة من المال بلغت أكثر من ألف وثمانمائة كيس[1] صرفها أحمد باشا أثناء حروبه السابقة، يضاف إلى ذلك مبلغ 48134 قرش صُرفت على إقامة الوفد الإيراني والوفد العثماني أثناء وجودهم ببغداد. ولكن المشكلة التي واجهت الجميع هي أن خزينة الدولة كانت خاوية، ولم يكن بوسع اسطنبول دفع أي مبالغ أخرى.

بينما كان أصحاب الأمر في اسطنبول في حيرة من أمرهم، للخروج من تلك المحنة المالية ، تقدم سليمان باشا صهر أحمد باشا وأبرز رجال المماليك الكرج من أطنة، بعرض مالي لحل تلك المشكلة، إذ أبدى استعداده لدفع ما بذمة الدولة من ديون ومستحقات من ماله الخاص بشرط أن يجري تعيينه بدرجة وزير لولاية البصرة، التي كانت قد خرجت عملياً من سيطرة الدولة.

أسرعت حكومة السلطان محمود الثاني المفلسة، بقبول عرض سليمان باشا الذي جمع كل تلك الأموال من أعمال السلب والنهب في عهد أحمد باشا، وطلبت منه دفع تلك الديون على أن يقدم للحكومة وصولات تثبت تسديدها، وعلى هذا الأساس صدر الفرمان بتعينه والياً على البصرة، وصدر الأمر بنقل حسين باشا الجليلي إلى ولاية أطنة.

(1.) الكيس خمسمائة قرش أو ثلاثة آلاف محمدية والمحمدية عشر أقجات، والأقجة كانت تعتبر نصف مثقال فضة وقد تغيرت في عهود أخرى.
(تاريخ العراق بين احتلالين – عباس العزاوي ج4 . ص139)

بعد أن وصل سليمان باشا إلى بغداد أظهرت تحركاته حقيقة نواياه وطموحاته، فهو في حقيقة الأمر كان يخطط لنيل ولاية بغداد، وأن هدفه الحقيقي من دفع ديون الدولة، كان العودة إلى بغداد ليتمكن من توجيه نشاطات المماليك الكرج للسيطرة على بغداد، ولذا لم يذهب سليمان باشا إلى البصرة بل أعلن أنه يطالب بولاية بغداد وعودة المماليك الكرج للحكم بحجة أنهم أعرف وأقدر من غيرهم بحكم العراق.

بالرغم من ذلك فأن سليمان باشا لم يشأ أن يظهر في تلك المرحلة الدقيقة بمظهر المتمرد على سياسة الدولة، وتمشياً مع تلك السياسة الحذرة، غادر سليمان باشا بغداد إلى مقر عمله بالبصرة بعد أن أوضح موقفه.

بعد فترة قرر سليمان باشا الخروج من البصرة بكامل قواته العسكرية وحاشيته والتحرك شمالاً، ولمواجهة تلك التطورات صدرت الأوامر من اسطنبول إلى والي سيواس محمد باشا الزازة بالتوجه إلى بغداد بعد أن جرى تعيينه قائداً عاماً، وصدرت تعليمات مشابهة إلى والي مرعش، وإلى أمراء الإقطاع العسكري وإلى ولاة الموصل وحلب والرقة وديار بكر وأمراء الكورد وشيوخ العشائر. ولكن أي تحرك ضد المماليك الكرج لم يحدث، لأن خزينة الدولة كانت خاوية، ولم يكن بالإمكان جمع كل تلك القوات ببغداد. كل ذلك أعطى سليمان باشا الوقت الكافي لتنفيذ خططه، فقد أرسل إلى اسطنبول تقارير مطولة لدعم موقفه، وفي تلك الأثناء وزع أموال طائلة في اسطنبول لذلك الغرض.

تراجع اسطنبول

كان للوساطات أو بالأحرى الأموال التي بذلها سليمان باشا في اسطنبول، الأثر البالغ في تغيير المناخ السياسي لصالحه. فقد ظهر في اسطنبول رأي جديد يطالب بعدم التسرع بإلصاق التهم والتشكيك في أعمال سليمان باشا، بل إعادة دراسة المشكلة والتحري عن دواخلها قبل اتخاذ القرار النهائي، وعلى هذا الأساس تقرر إرسال هيئة لتقصي الحقائق، وتم اختيار مصطفى بك الميراخور للذهاب إلى بغداد على وجه السرعة للتحدث مع مختلف الهيئات، وكتابة تقرير يساعد اسطنبول في اتخاذ القرار المناسب.

في بغداد أغدق سليمان باشا الأموال بسخاء على أعضاء لجنة التحقيق، ويبدو أن الأموال التي دخلت جعبة مصطفى بك الميراخور كانت كافية "لإقناعه" بأن سليمان باشا كان على حق، وعلى هذا الأساس وُضع التقرير النهائي.

في تشرين أول من سنة 1749م أصدر السلطان محمود الأول فرماناً بإسناد وزارة بغداد إلى سليمان باشا بالإضافة إلى أيالة البصرة.

في الثامن عشر من تشرين ثاني (نوفمبر) سنة 1749م استولى جيش المماليك الكرج بقيادة سليمان باشا على بغداد، وبذلك دخل العراق حقبة جديدة من تاريخه.

انتهى الجزء الثالث